شَجَرَةُ الأَنبِيَاءِ

- ٦ -

أبو الأنْبِيَاءَ

إِبْرَاهِيمُ عَلَيْهِ السَّلامُ

منصور الرفاعى عبيد   د/ إسماعيل عبد الفتاح   رزق السيد هيبة

رسم صفوت قاسم

دار الفكر العربى

٩٤ شارع عباس العقاد - مدينة نصر - القاهرة

ت : ٢٧٥٢٩٨٤، ٢٧٥٢٧٣٥ فاكس: ٢٧٥٢٧٣٥

٢٢٩,٥ منصور الرفاعى عبيد.

م ن أ ب أبو الأنبياء: إبراهيم عليه السلام:/ منصور الرفاعى عبيد، إسماعيل عبد الفتاح، رزق السيد هيبة؛ رسم صفوت قاسم.- القاهرة: دار الفكر العربى ١٩٩٨.

٣٦ ص : إيض؛ ٢٤ سم. - ([سلسلة] شجرة الأنبياء؛٦)

تدمك : ٨ ـ ١١٣٠ ـ ١٠ ـ ٩٧٧.

١ ـ قصص الأنبياء. أ ـ إسماعيل عبد الفتاح، مؤلف مشارك. ب- رزق السيد هيبة، مؤلف مشارك. جـ- صفوت قاسم، رسام. د- العنوان. هـ- السلسلة.

صف كمبيوتر عادل أحمد العزب

رقم الإيداع	٨١٨٥ / ٩٨

بسم الله الرحمن الرحيم

عندمَا نَقفُ أمامَ قـمَّة شَامخَة منْ قِمَمِ الإيمَـان والإسلاَمِ والتَّمسُّك برسَالَة التَّـوحيد، تكُونُ الوَقـفَةُ ذاتَ معَـانٍ كَبيـرَة وكَثيـرَة، لأنهَا تُعطينَا الدُّروسَ والعظَات، والعبرَ العَديدَةَ.

وَعلَى هَذه الصَّفحَـات ستكُونُ وَقْفَتنَا أمَـامَ شَخصيَّة إيمَـانية جَليلة كَرَّسَتْ حيَـاتَها منذُ مولدهَا حَتَّى وَفاتهَـا للدَّعوة إلَى التوحيد، التَّـوحيد الخَالص لله عَزَّ وجَلَّ، الله الذى لاَ إلهَ إلاَّ هُوَ، خَالقُ كُلِّ شَىْءٍ.

بَل إنَّ فُروعَ هَذه الشَّجرة الإيمَانيَّة، والدَّوحَة الإبرَاهيميَّة قَد انتشرَتْ إلَى كُلِّ مكَانٍ فِى الأَرضِ عَنِ طَرِيقِ الأَبـنَاء وَالأَحفَـاد الذينَ أرسَلَهُمُ اللهُ عَزَّ وجَلَّ لهِـداية البَشرِ والدَّعـوة إلَى التَّوحيـد، حَتَّى مُلئَتِ الأَرضُ بنور التَّوحيد عَن طَريقِ أبْناءِ هَذَا الرَّجُلِ وأَحفاده، مِمَّا جَعَلَهُ يَستحقُّ أَنْ يُسمَّى بِأبِى الأَنبياء.

وَقفـتُنَا اليومَ معَ إبرَاهيـمَ عَليه السَّلامُ، الَّذى قَـادَ مَسِيرَةَ التَّـحَوُّل الإيمانِىِّ فِى الأَرضِ كلِّهَا، هُو وأولاَدُهُ وأحْـفادهُ مِنْ بعده، وَاصْطفَاهُ اللهُ عَزَّ وجَلَّ، لِيكونَ دَاعِىَ التَّوحيـد. ولَمْ يكنْ هَذَا الاصْطفاءُ إلاَّ دَليلاً عَلَى قُوة الإيمان لَدَى إبراهيمَ عَليـه السَّلامُ، وبَعدَ ابتلاَءات كَثيـرة وَاختبَارَات مُتعدِّدةٍ نَجحَ فِيهَا الرَّسولُ العَظيمُ والنَّبىُّ الكَريمُ نجاحًا عَظيمًا.

نَسبُ إبراهيمَ عليهِ السلامُ

إبرَاهيمُ عَليه السَّلامُ رَجلٌ ذُو نسَبٍ عَريقٍ..

فَـهُـوَ إبراهيمُ خَليلُ اللهِ، بنُ تَارحَ، بنِ نَاحـورَ، بنِ سَـرُوجَ، بنِ عورَ، بنِ فَالجَ، بنِ عَابرَ، بنِ شَـالحَ، بنِ أرفَكشَاذَ بنِ سَامِ بنِ نُوحٍ عَليهِ السَّلامُ. فَجدُّهُ الأكبَرَ هُوَ نُوحٌ عَليه السَّلامُ.

وُلدَ إبرَاهيمُ فِى إحْدَى مَناطقِ العـرَاقِ، فِى زَمنٍ كَانَ يَحكُمُ الأَرضَ فيـه مَلكٌ كَافـرٌ، هُوَ النَّمـرودُ بنُ كَنعانَ، وكَـانَ الملكَ وَشعـبُهُ يعْـبدُونَ الأَصْنامَ مِنْ دُونِ اللهِ، وكَانَ النَّاسُ يَتَّـخِذُونَ هَذَا الملِكَ الكَافِرَ أَيْضًـا إلهًا يَعبدُونَهُ مِنْ دُونِ اللهِ.

وكَانَ قَـد مَرَّ زَمنٌ طَوِيلٌ يَقربُ مِنْ تِسْـعمائَةِ عـامٍ عَلَى رِسَالَةِ نُوحٍ عَليهِ السَّلامُ، فَطَالَ عَلَى النَّاسِ الأَمدُ وقَسَتْ قُلوبهُـمْ، وَانْحرَفُوا عَنْ دَعوةِ الحَقِّ، فَانتَشرَ الفَـسادُ فِى الأَرضِ، ونَسِى النَّاسُ آياتِ اللهِ وقدرَتَهُ وَقوَّتَهُ، وَنَسُوا مَا كَانَ مِنْ أَمرِ السَّفِـينَةِ، وَأَنَّهَا كَانتْ آيةً مِنَ اللهِ، عَنْ طَرِيقِهَا نَجَا المؤمِنُونَ، وَغرقَ فِى الطوفَانِ الكَافِرونَ.

انتشَرَ الفَسَادُ فِى الأَرضِ، وَانتشَرَتْ عبادَةُ الأَصْنامِ، وَخَاصَّةً فِى أيَّامِ ذَلكَ الملِكِ الكَافـرِ النَّمرودِ بنِ كَنعانَ، الَّذِى حَكمَ الـبِلادَ، وَامتَـدَّ حُكْمُهُ زَمَنًا طَوِيلاً.

وَكَانَ لاَ بُدَّ أَنْ يُقيمَ اللهُ الحجَّـةَ عَلَى النَّاسِ؛ لأَنَّهُ جَلَّ شَأنُهُ عَادِلٌ، لاَ يُعذِّبُ قومًا دُونَ أَنْ يبعثَ لَهمْ رَسولاً، وتحقيقًا لوَعدِه سُبحَانَهُ وتعالَى، كَانَ لاَبُـدَّ - فِى ذَلكَ الحِين - أَنْ يُرسلَ اللهُ لِلبَـشرِ مَنْ يذكِّـرُهم بربِّهِمْ، وَيدعُوهُمْ إِلَى تَوحِيدِهِ، وَإِفرادِهِ وَحدَهُ بالعِبَادةِ، وَيطلبُ منهُمُ الرَّجوعَ إِلَى اللهِ رَبِّ العَالَمِينَ.

مولدُ إبراهيمَ عليهِ السلامُ

أوردت الكتُبُ رواياتٍ كثيرةً عَنْ مولد إبراهيمَ عَلَيْه السَّلامُ، لَعلَّ أشهرَهَا تلكَ الرِّوايةُ الطَّرِيفَةُ الَّتى تَقُولُ:

جاءَ الكَهَنَةُ والعرَّافونَ إلَى الملكِ النَّمرود بنِ كَنعانَ يَقولُونَ لَهُ: إنَّ الرَّملَ الَّذى يضربُونَهُ ليعرِفُوا عَنْ طَرِيقه مُعلوماتٍ عَنِ المسْتقبَلِ، وَالنُّجومَ الَّتى يَستوْحُونَهَا تَقُولُ أَنهُ سيولَدُ فى شَهْرٍ من هَذَا العَامِ غلامٌ سيُرسِلُهُ اللهُ ليكونَ نَبيًّا ورسُولاً، وسيكُون زَوالُ مُلك النَّمرود عَلَى يَدَيْه، فَجمعَ الملكُ النَّمرودُ النِّساءَ الحوَاملَ فى مَملكَته، وحَبسَهُنَّ فى قَصْرِه، وكُلَّما ولَدَتْ واحدةٌ منهنَّ ولدًا ذكرًا ذبحَهُ، حَتَّى انْتهى هَذَا الشَّهرُ منْ تلكَ السَّنة، وكانَ حَملُ أُمِّ إبراهيمَ غيرَ ظاهرٍ، ولأنهَا فِى الوَقتِ نَفسِه كَانتْ زوجًا لخادمِ الآلهَة لَمْ يهتمَّ بِهَا الحرَّاسُ، وعندَمَا جاءَهَا المخَاضُ كَمقدِّمة لحالَة الولادَة خَافتْ إنْ علمَ الحرَّاسُ بولادتهَا أنْ يقتلُوا ابْنَهَا. فَخرجَتْ فى اللَّيْلِ إلَى الجبَلِ، فوجَدتْ مَغارةً ولدَتْ فيهَا إبراهيمَ، وسَدَّتْ بَابَ المغَارة خَوْفًا عَلَى وَليدهَا، وعَادَتْ إلَى بَيْتهَا فى الصَّباحِ، وأَخبرتْ زوجَهَا بأنَّهَا قَدْ وَلَدتْ، ولَكنَّ الوَلدَ الَّذى وَضعَتْهُ قدْ مَاتَ، فَصدَّقَهَا زَوجُهَا فيمَا روَتْ وشُغلَ بعمَلهِ الَّذى هُوَ فيه حينًا من الوَقْتِ.

وَظلَّت أمُّ إبرَاهِيم تَذْهُب إلَى المغَارة كُلَّ يوم، فَتجدُ ابْنَهَا حيًّا يَمُصُّ إبهَامَهُ (أُصبُعَهُ الكَبِير) إذْ جعَلَ اللهُ رزقَ هَذَا الطِّفلِ فِى مَصِّه لإبْهَامه.
وَحرَسَتْهُ عنايَةُ الله حتَّى مرَّتِ الشُّهورُ الخَمسةَ عَشرَ الأولَى مِنْ حيَاته وَهُوَ فِى المغَارةِ لَمْ يبرحْهَا.

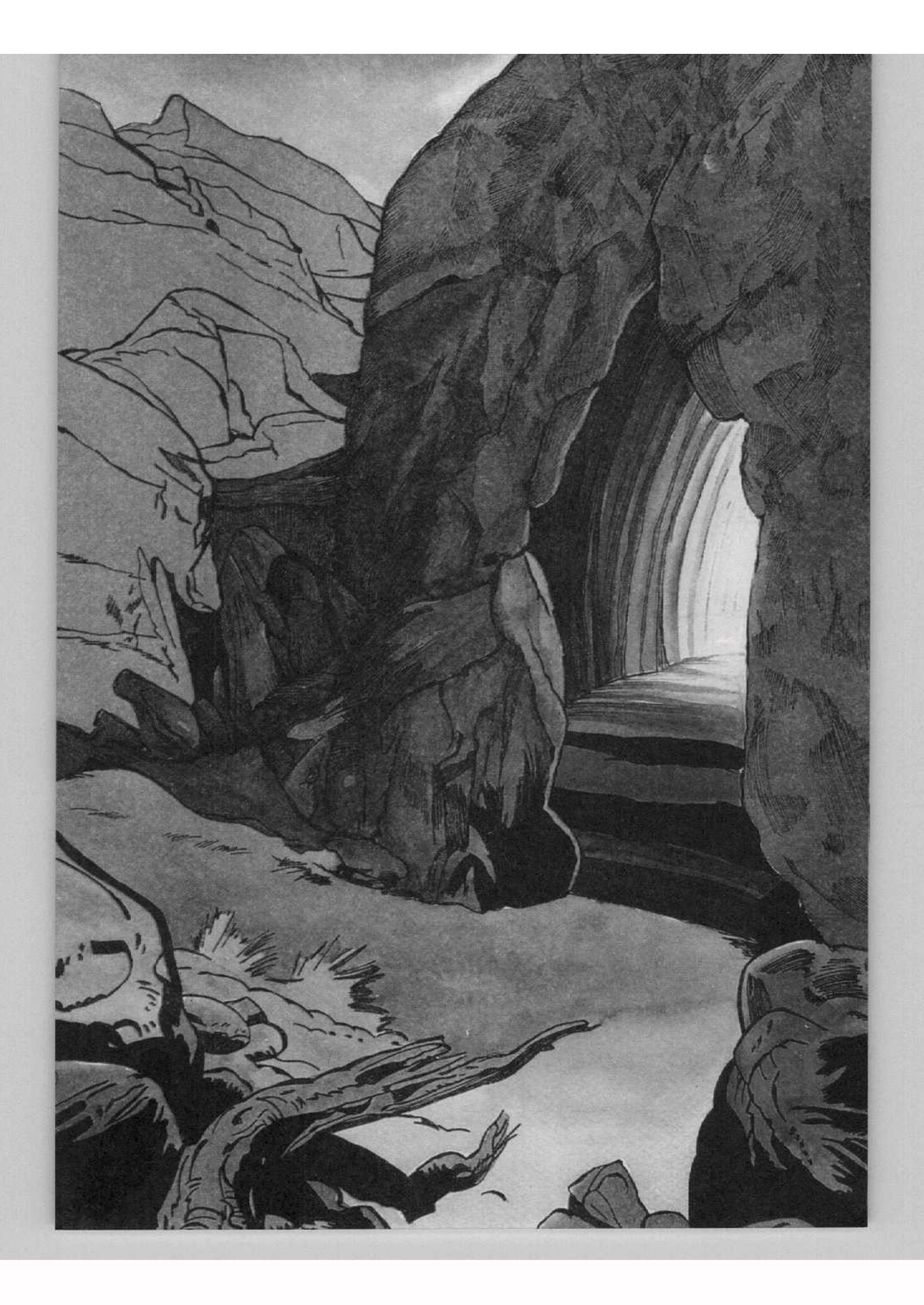
وَنَسِىَ الملِكُ، ونسِى النَّاسُ مَعهُ، حكَايةَ الشَّهرِ الَّذى كَانُوا يَقتُلُونَ الأطفالَ فيه، بَعدَ أنْ ظَنَّ الملِكُ أنهُ قَدْ نَجَا هُوَ وَمُلْكُهُ، وتَخلَّصَ مِنْ هَذَا الطِّفلِ الذِى قَالَ الكَهنَةُ أنهُ سَيُبْعثُ نَبيًّا ورَسُولاً.

أليسَ الملِكُ قَدْ ذَبحَ كُلَّ الأَطفَالِ الَّذينَ وُلِدُوا فِى هَذَا الشَّهرِ، فَمَا الَّذِى يُخيفُهُ بَعدَ ذَلكَ؟

وَلَكنَّ إرادَةَ الله فَوقَ كُلِّ إرادَة، ومَشيئَتَهُ فَوقَ كُلِّ مَشيئَة، وَهَا هِىَ ذِى أُمُّ إبرَاهِيم تَعودُ بِالطِّفلِ إِلَى أبِيه، وتَحْكِى لَهُ القِصَّةَ مُنذُ البِدَايَة، وَصدَّقَهَا الأَبُ، وَفرِحَ بابنه فرحًا مَا عَليه مِنْ مَزِيد.

تُؤكِّدُ لَنَا هَذه القِصَّةُ رعَايَةَ الله للأَنْبيَاء، وعِنَايتَهُ بِهِمْ، وحِرَاستَهُ إيَّاهُمْ مُنذُ وِلاَدتِهِمْ، لأنهُمْ مكلَّفُونَ برِسالَة مُقَدَّسة، كَتبَ اللهُ أَنْ يُبلِّغُوهَا لِلنَّاسِ، وَأَنْ يَعيشُوا لأجْلِهَا حَتَّى يَنتَهِىَ أَمدُ التَّبليغ، وصَدَقَ الشَّاعِرُ الَّذِى يَقولُ:

وَإذَا العنايَةُ لاَحَظتْكَ عيُونُهَا ... نَمْ فَالمخَاطِرُ كلُّهنَّ أمَانُ



فِى الطَّرِيقِ إِلَى اللهِ

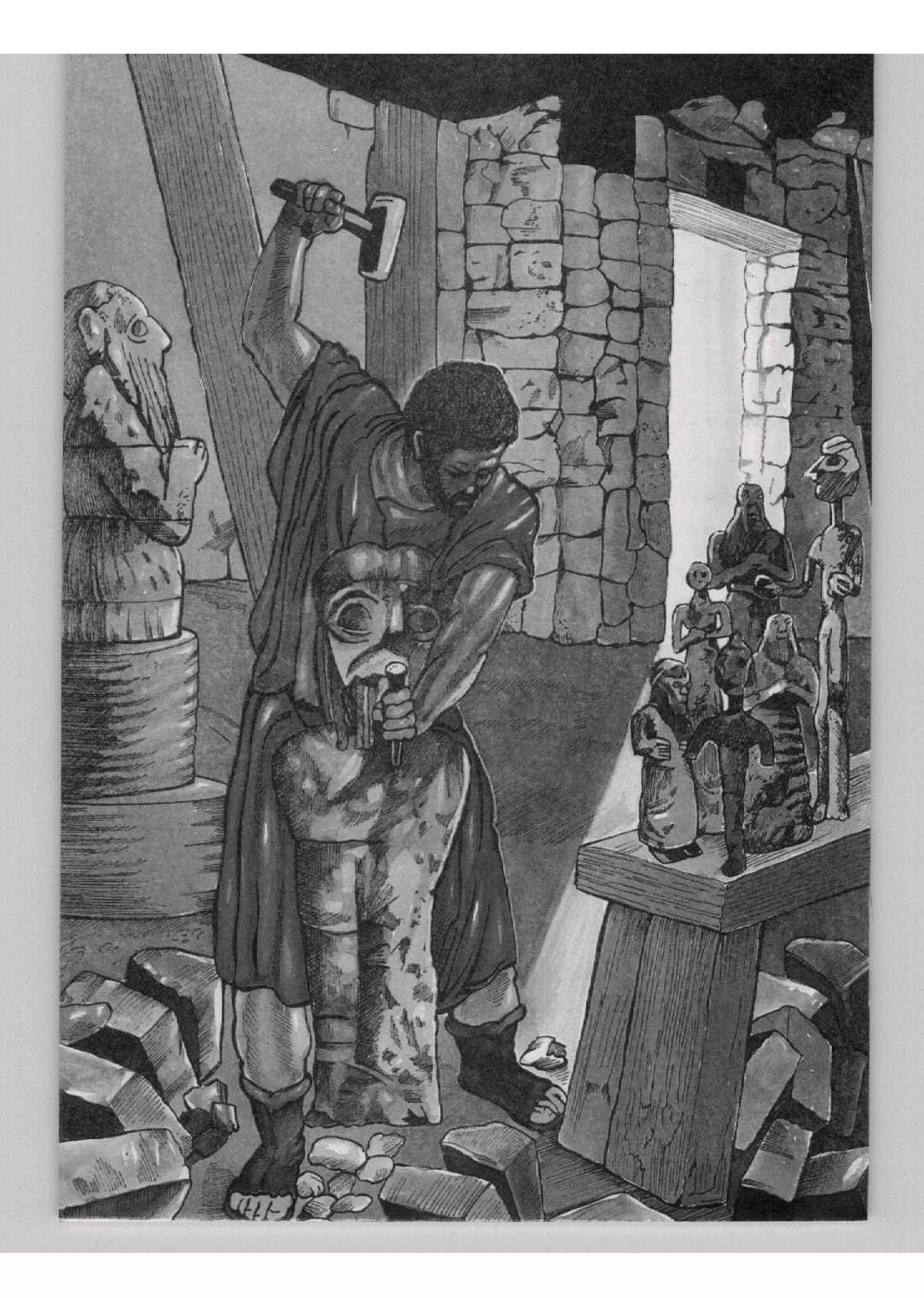
لَعلَّ فِى كَيفـيَّة مولد إبرَاهيمَ عَليه السَّلامُ، وعُـزلَته فِى المغَارة وهُوَ لاَيزالُ ولَيدًا، دَليلاً عَلَى أَنَّ اللهَ اصْطفَاهُ وحفظَهُ منذُ مَولده؛ لأَنَّه سبْحَانَهُ وَتعالَى يَدَّخرُ نَبيَّهُ لتبْليغِ رِسالَة كُبرَى.

لَقدْ فرحَ الوالدُ بابنه فَرحًا شَـديدًا، لأَنَّهُ سيُساعدُهُ فِى بَيْعِ الأَصْنام، فَقدْ كَانتْ مـهنةُ الأَبِ أنْ يصنَعَ الأَصنامَ، ويَبيعَهَا للنَّاسِ، كَـمَا كَانتْ لَهُ وَظيفَةٌ أُخْرَى هِى خدمَةُ المعْبَـد، وَحرَاسَةِ الأَصنامِ الَّتِى فيه، فكَانَ يَحرُسُ المعْـبدَ، وَيصنَعُ الأَصنامَ، ويُرسِلُ ابنَهُ إلَى السُّـوقِ لِيَـبيعَ هَذهِ الأَصنَامَ للنَّاسِ.

وَلكنَّ إبرَاهِيمَ الطِّفلَ، كَـانَ اللهُ قَدْ أَعطَاهُ الْعقْلَ، وَمنحَـهُ الحِكْمَةَ، وَأَظهَـرَ لهُ آيات قدرَته، مُنذُ مَـولده فِى المغَارة، حَـتَّى طُفولَـته، وَصِـبَاهُ وَشبَابه، وَاسْـتمرَّتْ هَذه الحِكْمَةُ تلازِمُ تفكِيرَ إبرَاهِيم عَليْـه السَّلامُ حَتَّى كُهولَته وَشيخُوخته.

وَلقَدْ وَضـعَ اللهُ بُغْضَ هَذه الأَصنَامِ فِى قَلْبِ إبراهيمَ مُنذُ بدَأَ وَعـيُهُ يَتـفتَّحُ، وتَفكيـرُهُ يعـمَلُ، رَغمَ أَنها صِـنَاعةُ أَبِيـه، ومهـنَتُهُ الَّتِى يَعـيشُ عَليهَـا. . وتلكَ رِعايَةُ اللهِ لأَنبِيَـائه مُنذُ الصِّغرِ، أَليسَ اللهُ قَـدْ حَفظَهُ فِى المغَارة وَهوَ طِفلٌ رَضيعٌ، وَسقَاهُ وأَطعَمَهُ، وَهوَ فِى أَشَدِّ الحاجَةِ إلَى الرِّيِّ والغذَاء؟ وَقدْ تَجلَّتْ فِطرتُهُ الصَّافيةُ، فَراحَ يَتأملُ الكَونَ، وَيتدبَّرُ آيات اللهِ فِيه، لَعلَّهُ يَهتدِى إلَى الإِلَهِ الحَقِّ، خَالِقِ الكَوْنِ ومُبدعِ مَا فِيه!!

رَأَى كوكَـبًا يتَـوسَّطُ كبِـدَ السَّمـاءِ بعْدَ وقت العـشَاء بقَليلٍ، فـقَالَ مُـتأمِّـلاً: هَذَا رَبِّى. . وَبعدَ قليلٍ اخْـتفَى الـكَوكبُ، فتَـفكَّرَ إبرَاهيمُ فِى



الأمر، وَقالَ لنفْسه: إنَّ الرَّبَّ لاَ يختـفى ولاَينام. وَنظَر فى السَّماء فوجدَ القمرَ قـدْ ظَهر وبَدَأ ينشرُ ضوءهُ علَـى الأرض، فقالَ: هَذا ربِّى. . وراحَ يَتبعُهُ ببصره وَيتأمَّلُهُ، حَتَّى غَابَ وَاخْتفَى. . فقَالَ إبراهيمُ لنفْسه: إنَّ ربَّ هَذَا الكوْنَ لاَ يُمكنُ أنْ يغيبَ عَنهُ لحظَةً، لأنهُ لوْ حَدثَ ذَلكَ لاَختَلَّ نظامُ الدُّنيَا، ولَربمَا وقعَت السَّمَاءُ عَلَى الأَرض.

وَدَعا إبرَاهيمُ رَبَّهُ أنْ يَهْديَهُ إلَى الحقِّ، فَيعرفَ الحقيقَةَ.

وَجاءَ صَباحٌ جَـديدٌ. . فَوجَدَ إبرَاهيمُ الشَّمسَ بَازغَةً مُـشرقَةً، تَملأُ الدُّنيَا بـالنُّور والحرارة، وَهىَ فى الوَقت نَفْـسه أكبـرُ منْ كُلِّ الكَواكب!.

فقَالَ هَذا رَبِّى، هَذَا أكبرُ، وَلَكنَّهَا بعْـدَ قَليلٍ اخْتفَتْ فَى ظلِّ أول سَحَابة قَابلتْهَا، وهُنَا كَانَ إبراهيمُ قدْ وَصلَ إلَى قـمةِ الهدَاية وَالإيمَان، فَعَرفَ أنَّ اللهَ عزَّ وجلَّ هوُ إلَهُ هَذَا الكَون، وأنَّ الشَّمسَ وَالقَـمرَ وَالنُّجوم آياتٌ منْ آيات الله عزَّ وجلَّ، سَخَّرهَا رَبُّهَا لنفْع العبَاد، وفَوائد البلاَد.

وَكبُرَ إبرَاهيمُ ونَما عَلَى فطرَة التَّوحيد، وكلَّمَا مَضَى يَومٌ تَأكَّدَ لَهُ أنَّ القَومَ ضَالُّونَ بعبَادَتهم حجارةً وَأخشَابًا صَنَعهَا أبوهُ بيده، وَقالَ لنفْسه:

كَيفَ يَشْترى النَّاسُ حجَارةً صَمَّاءَ، يَدفعُونَ فيهَا أموالَهمْ، وَيَخرُّونَ لَها سُجَّدًا، وَقد عَلموا أنهَا أشيَاءُ منْ صُنْع البَشر.

وَعندمَـا شَبَّ عَن الطَّوق، وبَـدأ يساعـدُ أبَاهُ فـى بَيع هَذه الأَصْنام للنَّاس كَانَ يَجرُّهَا بالحبَال وَهو يَنادى:

مَنْ يَشترى مَا يَضرُّهُ وَلاَ يَنفعُهُ؟.

فَلاَ يشتريهَا أَحـدٌ منهُ. . وَفى آخر النَّهار يَأخُذُ إبرَاهيمُ الأَصنَامَ إلَى النَّهر، ويَقولُ لهَا:

إنْ كُنت تَقدرينَ عَلَى نَفع النَّاس أَو ضَررهمْ، فَـتقدَّمى وَاشربى منْ هَذا النَّهر.

وَطبعًا، لاَ يُمكنُ للأَصْنام أن تَتقدَّمَ وتشربَ من مَاء النَّهر.

وَعـرفَ النَّاسُ أنَ إبرَاهيمَ، لاَ يعْـتـرفُ بأصنامـهمْ، ولاَ يُقـرُّ لَهَـا بالعِبَادةِ، وأنهُ يعْبدُ ربًّا آخرَ، لاَ يعرفُونَهُ، ولاَ يرَوْنَهُ.

بَدْءُ دَعوةِ التَّوحيدِ

كَـانَ سُلوكُ إبرَاهيمَ، وأخـلاقُـهُ بينَ الـنَّاسِ تَدلُّ علَى تَمـامِ عَـقْله وكماله، وأنَّهُ من الموحِّدينَ الَّذينَ لاَ يُشركُـونَ باللهِ شيْئًا - وكَانَ عليه أنْ يُبلِّغَ النَاسَ برسَـالةِ اللهِ إلَيْهِم، وأنْ يَدعُـوهُمْ إلَى توحيـدِ اللهِ عزَّ وجَلَّ، وعَدمِ الشِّـرْكِ به. فَبدأَ يَدعُو أمَّـهُ وأبَاهُ، ولَقدْ مَاتَتْ أمُّـهُ، ولَمْ يذكُرْ لنَا التَّاريخُ عنهَـا شَيْئًا، أمَا أبُوهُ فَـقدْ حكَى لَنَا القُرآنُ حواراتِه مَـعهُ، ودعوةَ إبرَاهيمَ إيَّاهُ إلَى عبادَةِ اللهِ وحدَهُ.. قَالَ إبرَاهيمُ:

يَا أبتِ، لِمَ تَعبدُ مَا لاَ يَسمَعُ ولاَ يُبصرُ، ولاَ يُغْنِى عَنْكَ شيْئًا؟

وظهرَتِ الدَّهشَةُ عَلَى وجهِ الأبِ، فَالأصْنَامُ صنَاعَتُهُ، ولَئنَ اخْتفتْ عبادَةُ الأصْنَامِ، فَسوفَ تبورُ معَهَا تجارَتُهُ، وتنعدَمُ فَائدتُهُ، وبذلكَ تنقضِى حيَاتُهُ. فقالَ لابنه: «أراغبٌ أنتَ عَنْ آلهتِى يَا إبرَاهيمُ؟»

ثُمَّ توعَّدهُ وحَـذَّرهُ منْ عَاقـبَةِ مَا يَدْعُـو إليْهِ، فَـقَالَ: **«لَئِنْ لَمْ تَـنْتَـهِ لأرْجُمنَّكَ، وَاهْجُرنِى مَلِيًّا»**.

وبثقَـته باللهِ المؤكَّدة، وإيمَـانهِ الرَّاسخِ بربِّهِ، وصدقِ رسَالتِـهِ: قَالَ بصوتٍ واضحٍ قَوىٍّ جلىٍّ:

لاَ.. لَنْ أرجعَ أبدًا عَنْ أداءِ رسالَةِ التَّوحيدِ، ولَنْ أنتَهِى عَنْ تَبليغِ الدَّعوةِ الَّتِى أوْحَى اللهُ إلىَّ بهَا.

تحطيمُ الأصنامِ

كَانَ إبرَاهيمُ يُؤمنُ إيمَانًا رَاسِـخًا أنَّ هَذه الأصنَامَ لاَ تَضرُّ ولاَ تَنفعُ، ولَقدْ عمدَ إلَى تَحقيقِ ذَلكَ عَمليًّا، فِى يَومِ عيدهمْ، عندمَا دعَاهُ أبوهُ إلَى الخُروجِ معَهُمْ إلَى مَكَانِ اجْتماعِهمْ فِى العيدِ، إذْ قَالَ لَهُ أبُوهُ:

إنَّكَ لَوْ خَرَجْتَ مَعَنا للْعيد لأعجَبَكَ دينُنا، فتعالَ يابُنَيَّ وانظُرْ ما نفعلُ فى العيد، وسينشرح صَدرُكَ وَيبتهج فُؤادُكَ.

فَخرجَ إبرَاهيمُ مَعَهُ، وفى بَعْضِ الطَّريق أرادَ إبراهيمُ أنْ يتخلَّصَ من هَذه الدَّعوة وألاَّ يُكملَ السَّيرَ مَعَ أبيه، فَقَدْ أرادَ اللهُ أنْ يَعصمَهُ مِنَ السُّجود للمَلكِ أو الأصنَامِ. فقالَ إبرَاهيمُ لأبيه: إنِّى سَقيمٌ. أىْ أنَا مَريضٌ لاَ يُمْكنُنى مُواصلةُ السَّيرِ مَعكَ إلَى مَكانِ العيد، ولَمْ تكُنْ هَذه كذبةً لأنَّ الأنبياءَ لاَ يكذبُونَ، لأنَّهُ كانَ سَقيمًا فى نَفْسه غيرَ رَاضٍ عَنْ عَبادَة النَّاس لغَيْرِ الله عزَّ وجَلَّ، لذلكَ أشتكَى إلَى أبيه ألمًا يُحسُّ به فى رِجلَيه، فتركُوهُ، وذهبوا إلَى عيدهم، فقَالَ بصَوت سَمعَه بعضُهم: وَاللهِ لأَكيدَنَّ أَصنامَكُمْ.

وَعادَ إبرَاهيمُ ليكيدَ لأصْنامهمْ. فَذَهَبَ إلَى مَا يُطلقُونَ عليه اسْمَ «بيت الآلهَةَ» وهى صَالَةٌ كَبيرَةٌ مِنَ الرُّخامِ، نَصبُوا فيهَا أَصنَامَهُمْ، وعَلَى البَابَ الرَّئيسىِّ نَصبُوا صَنمًا كَبيرًا، وإلَى جَانبه وَخلْفَهُ أَصنامٌ أصغرُ فَأصغَرُ، وكَانَ القَومُ قَدْ صَنعُوا طَعامًا وتَركُوهُ عندَ أيْدى أَصنامهمْ، حتَّى إذَا عَادُوا منْ عيدهم أكلُوا الطَّعامَ، وَهُمْ يَتصورونَ أنَّ الآلَهَةَ قدْ بَاركَتْهُ.

نَظرَ إبرَاهيمُ إلَى الأصْنامِ وكأنَّها بَشرٌ يُحاورُهَا، قَالَ: ألاَ تأكلُونَ؟

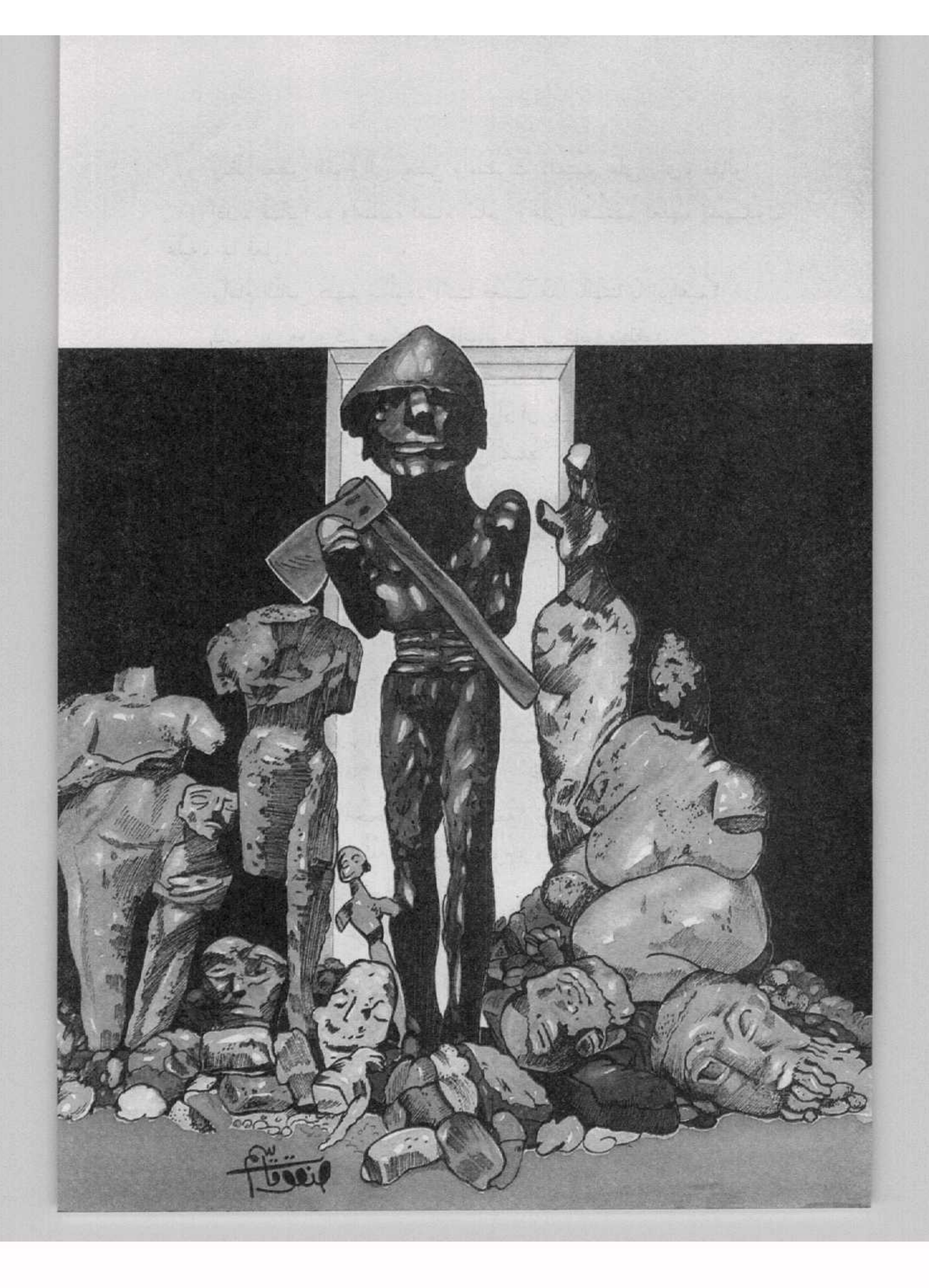
ولَمْ تُجبْهُ الأصنَامُ الصَّمَّاءُ، فقَالَ لَهمْ بتَحدٍّ: ألاَ تَنطقُونَ؟

ولَمْ تَنطقِ الأصْنَامُ، وَأمسكَ فَأْسًا كَبيرَةً، وَهوَى بهَا عَلَى الأَصْنَامِ تكسيرًا وتَحطيمًا، إلاَّ الصَّنَمَ الأكْبرَ فَقَدْ تركَهُ وعَلَّق الفَأسَ فى رَقَبته، وانْصرَفَ مِنَ المَعبَد وَهُوَ مُبتَهجٌ بمَا صَنعَ.

وَعادَ القَوْمُ إلَى بيت آلهتهمْ، فَوجَدُوا أَصنامَهُمْ مُحطَّمةً، فَتساءلُوا: مَنْ فَعلَ هَذَا بآلهتنَا، إنَّهُ لمنَ الظَّالمينَ.

وتذكَّرَ بعضُهمْ تَهديدَ إبراهيمَ بكَيْدِ الأصنَامِ فقَالُوا:

لَقدْ سَمعْنَا فَتًى يَذكرُهُمْ بسُوءٍ يقَالُ لهُ إبرَاهيمُ.



وَنظَرَ بعضُ القَوْمِ إلَى بَعضٍ واستقرّت كَلمتُهُمْ عَلَى رأى، فقالُوا: إذَنْ، فأتوا بِهِ واسألُوهُ أَمَامَ النَّاسِ وعلَى أعْيُنهم لَعلَهُمْ يَشْهَدُونَ عَلَيْهِ، بمَا فَعلَ.

وأَمامَ النَّاسِ كُلِّهِمْ سَأَلُوهُ: أأنتَ فَعَلْتَ هَذا بآلهتنَا يَا إبراهيمُ؟

قَالَ: بَلْ فعَلَهُ كَبيرهُم هذَا، فَاسألوهُمْ إنْ كَانُوا يَنْطقُونَ.

وعلَّلَ إبراهيمُ ذَلكَ بأنَّ الفَأْس مُعلَّقَةٌ فى رَقَبَةِ الصَّنمِ الكَبيرِ، وَإبراهيمُ لَمْ يَكْذِبْ هُنَا أيضًا؛ لأنَّهُ أرادَ أنْ يُقيمَ الحجَّةَ عليْهِم، لأنَّ الأَصنَامَ لوْ كَانتْ آلهَةً حَقًّا لدَافعَتْ عَنْ نَفسهَا.

وَسبْحَانَ اللهِ، بَدلاً مِنْ أنْ يَسألُوا أَصنَامَهُمْ، نُكسُوا عَلى رُءُوسِهِمْ قَليلاً ثُمَّ عرفُوا أنَّ أَصنامهم هَذه لاَ تَنطقُ، فقالُوا لإبرَاهيمَ:

لَقدْ عَلمْتَ مَا هؤُلاءِ يَنطقُونَ!

فَانتهزَ إبراهيمُ الفُرصَةَ ليشرحَ لَهمْ رسالَتَهُ، وَأنَّ العبادَةَ الصَّحيحةَ هِىَ تَوحيدُ اللهِ، وَإفْرادُهُ بالعبَادة وَالوحدانيَّة، وأنَّ اللهَ وَحدَهُ هوَ المَعْبودُ بَحقٍّ وَلاَ إلهَ سِوَاهُ، وَفِى مَهارة الدَّاعى قَالَ لَهمْ:

أَفتعبُدُونَ مِنْ دُونِ اللهِ مَالاَ يَنفعُكُمْ شَيئًا وَلاَ يضرُّكُمْ، أُفٍّ لَكمْ ولمَا تَعبدُونَ مِنْ دُونِ اللهِ أفلاَ تَعقلُونَ!

يَا أَللهُ! مَا هذه الحُجَّةُ القَويَّةُ الدَّامغَةُ؟ وَمَا هَذا الإقْناعُ الرَّائعُ لرسَالة التَّوحيدِ، ورغمَ ذَلكَ كُلِّه لَمْ يقتنعِ القَوْمُ، وَعميَتْ أبصارُهمْ وَقلُوبُهمْ، فَلَم تَستطعْ أَنْ تُضِيءَ بذكرِ اللهِ وَعبَادته.

ولْنقرَأْ قَولَ اللهِ عزَّ وجلَّ فِى كتَابِه العَزيزِ يَحْكى لَنَا هَذه المَوَاقفَ:

﴿ وَلَقدْ آتينَا إبْرَاهيمَ رُشْدَهُ من قَبْلُ وكُنَّا به عَالمين ﴿٥١﴾ إذْ قَالَ لأَبيه وقَومه مَا هَذه التَّمَاثيلُ الَّتى أنتُمْ لَهَا عَاكفُونَ ﴿٥٢﴾ قَالُوا وَجَدْنَا آبَاءَنَا لَهَا عَابدينَ ﴿٥٣﴾ قَالَ لَقَدْ كُنتُمْ أَنتُمْ وَآبَاؤُكُمْ فِى ضَلالٍ مُّبينٍ ﴿٥٤﴾ قَالُوا أَجئْتَنَا بالْحَقِّ أَمْ أَنت من

اللاَّعبين ﴿٥٥﴾ قَالَ بل رَّبُّكُمْ ربُّ السَّموَات وَالأَرْضِ الَّذى فطرهُنَّ وأَنا عَلىٰ ذلكُم مِّن الشَّاهدين ﴿٥٦﴾ وتَاللَّه لأَكيدنَّ أَصْنَامكُم بعْد أَن تُوَلُّوا مُدْبرين ﴿٥٧﴾ فجعَلَهُمْ جُذَاذاً إلاَّ كبيراً لَّهم لعلَّهُمْ إلَيْه يرْجعُون ﴿٥٨﴾ قَالُوا من فعَل هذا بآلهتنا إنَّهُ لَمن الظَّالمين ﴿٥٩﴾ قَالُوا سمعْنا فتًى يذْكُرُهُمْ يقَالُ لَهُ إبْراهيمُ ﴿٦٠﴾ قَالُوا فأْتُوا به علَىٰ أَعْيُنِ النَّاسِ لعلَّهُمْ يشْهدُون ﴿٦١﴾ قَالُوا أَأَنت فعَلْت هذا بآلهتنا يا إبْراهيم ﴿٦٢﴾ قَالَ بلْ فعلَه كبيرُهُمْ هذَا فاسأَلُوهُمْ إن كَانُوا ينطقُون ﴿٦٣﴾ فرجعُوا إلَىٰ أَنفسهمْ فقَالُوا إنَّكُمْ أَنتمُ الظَّالمُون ﴿٦٤﴾ ثُمَّ نُكسُوا علَىٰ رءُوسهمْ لَقدْ علمْت ما هؤُلاء ينطقُون ﴿٦٥﴾ قَالَ أَفتعْبُدُون من دُون اللَّه ما لا ينفعُكُمْ شيْئًا ولايضُرُّكُمْ ﴿٦٦﴾ أُفٍّ لَّكُمْ ولما تعْبُدُون من دُون اللَّه أَفلا تعْقلُون﴾ [الأنبياء: ٥١ - ٦٧].

الَّذِى حَاجَّ إبرَاهِيمَ فِى رَبِّهِ

كَانَ إبرَاهيـمُ عليه السَّلامُ يَقْـرعُ الحُجـةَ بالحجَّة، ويُـؤيدُهُ اللهُ دائمًا بالأدلة السَّـاطعة، والبـرَاهينِ القَاطعـة علَى وُجود الله سُـبحَانَهُ وتـعَالَى وَوحدَانيتّه، وَقُدْرته علَى الخَلْق والإيجَاد، وَالإهْلاَك وَالإفْنَاء، وَأَنَّهُ وَحدَهُ الحيُّ الذى لاَ يَموتُ، والإنسُ والجنُّ يمُوتُون.

فَبعـدَ أنْ أفحمَ القَوْمَ وبيَّنَ لَهمْ أن أصنَامـهُمْ لاَ تَنْطقُ، ولاَ تَستطيعُ الدِّفاعَ عَنْ نَفْسـهَا، وبعدَ أنْ غَلبَتْهُمْ حُجَّـتُهُ فى هَذَا الموْقف، أخذُوه إلَى ملكِهمُ النَّمرود وقصُّوا عليه مَا حدَثَ، قَالَ النَّمرودُ لإبرَاهيم:

مَنْ إلهُكَ الَّذى تَدْعُو إليه أيُّها الرَّجُلُ.. وَهلْ هُنَاكَ إلهٌ غَيْرى؟

قَال إبرَاهيمُ بثقَة وثَبات:

نَعمْ.. إلَهى وَإلهكَ هُوَ اللهُ رَبُّ العَالمينَ، خَالقى وخَالقُكَ، وخَالقُ الكَون كُلِّه، وبيده وَحدَهُ تَدبيرُ شُئون خَلْقه.

قَالَ النَّمرودُ، وَقدْ بدا فى كَلامه الاسْتهزاءُ والسُّخرية منْ إبرَاهِيمَ:

وَهلْ إلهُكَ هذا أقوَى منِّى، أو يملكُ مُلكًا مثل مُلكِى؟

قَالَ إبرَاهيمُ:

نَعمْ، ربِّىَ الَّذى يُحْيى ويَميتُ.

قَالَ النَّمرودُ بتَجَبُّرٍ واسْتعْلاء:

أنا أيْضًا أُحْيى وأَميتُ.

وأمرَ النَّمرودُ حرَسَهُ أنْ يأتوا برَجُلَيْن محْكوم عليهمَا بالإعْدام، فأمَرَ السَّياف بقَتل أحدهمَا، وعَفا عَنِ الآخَرِ.. والتفتَ إلى إبراهيمَ وقَالَ:

انظُرْ، لَقدْ أمرتُ بقَتْلِ الأول، فأنَا الَّذى أمَتُّهُ، أمَّا الثَّانى فكَانَ محْكومًا عليه بالإعدام مثلَ صَاحبه فعفَوْتُ عَنهُ فَبقَى حيًّا، فَأنَا الَّذى أحْييْتُهُ بعفْوى عَنْهُ.. ألاَ تَرَى أنَّنى أُحْيِى وأُميتُ؟

قَالَ إبرَاهيمُ بثقَة وهُدوء:

فَإنَّ اللهَ يَأْتِى بالشَّمْسِ منَ المشْرِقِ فَأْت بهَا منَ المغْرِب.

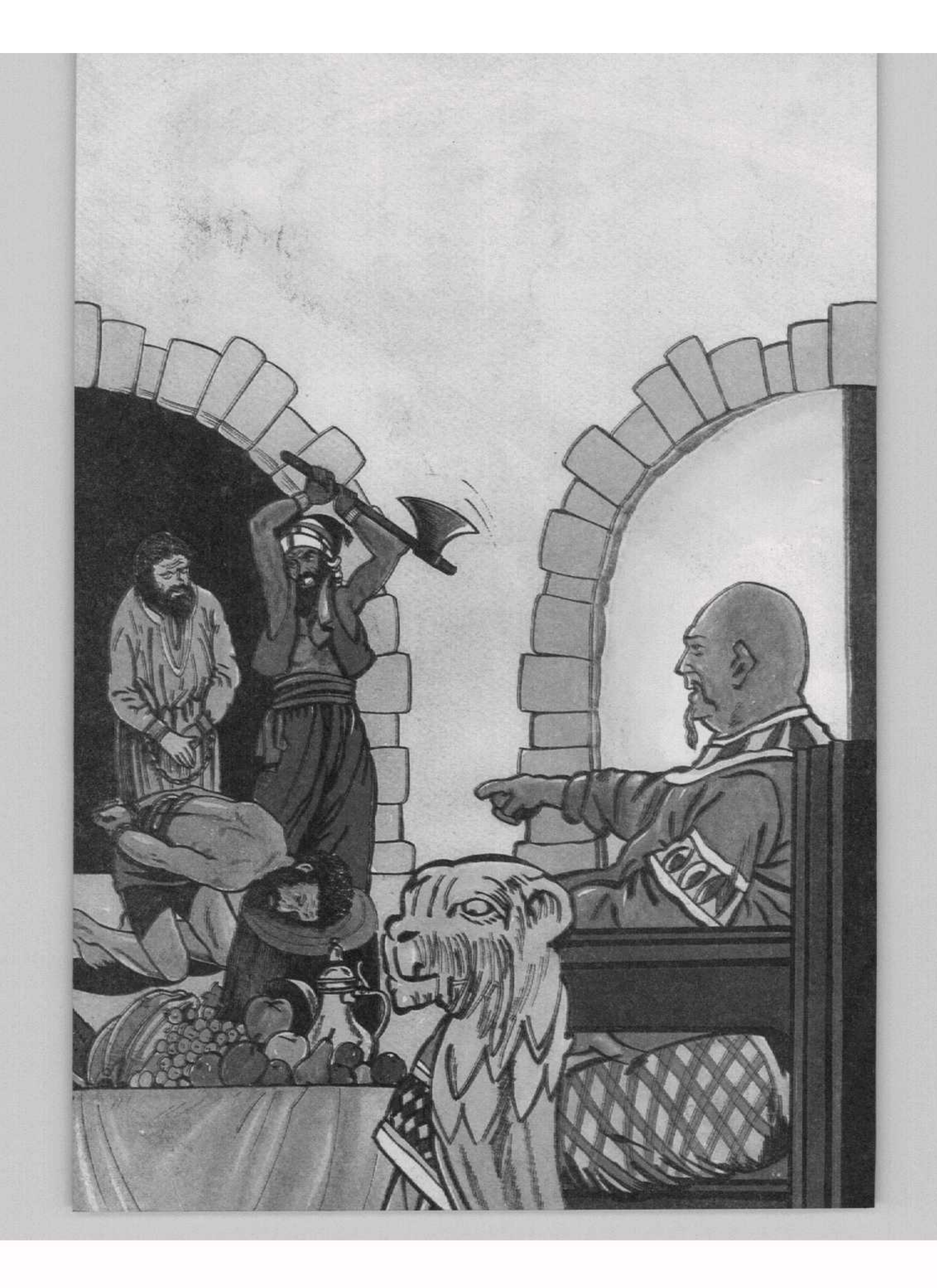
وبُهتَ النَّمرودُ وأُلْجِمَ، ولَمْ يَستطِعْ أنْ يُجيبَ إبراهيمَ، فَتلكَ حُجَّةٌ قاطعَةٌ بأنهُ لاَ يُمكنُ أنْ يأتِى بالشَّمْسِ مِنَ المغْرِبِ إلاَّ خَالقُهَا الَّذى يُسيِّرُهَا فِى فَلكهَا إلَى وَقت معلُوم.

ويَحْكى لَنَا القُرآنُ الكريمُ ذَلكَ الموْقفَ فِى قَول الله سُبحَانَهُ وتعَالَى:

﴿ألَمْ تَرَ إلَى الَّذى حَاجَّ إبْرَاهيم فى ربه أنْ آتاهُ اللَّهُ الْمُلْك إذْ قَالَ إبْرَاهيمُ ربى الَّذى يُحْيى ويُميتُ قَالَ أنا أُحْيِي وأُميتُ قَالَ إبْرَاهيمُ فَإنَّ اللَّهَ يَأْتى بالشَّمْس من الْمَشْرق فَأْت بهَا من الْمَغْرب فَبُهتَ الَّذى كفر وَاللَّهُ لا يَهْدى الْقَوْمَ الظَّالمين﴾
[البقرة: ٢٥٨]

النَّار.. بردًا وسلامًا

استَرَدَّ الملكُ النَّمرودُ أنفَاسَهُ بعْدَ أنْ رأى البرهَانَ السَّاطعَ والدَّليلَ







القَاطِـعَ، عَلَى أَنهُ بَشرٌ منَ البَـشَرِ لاَ يملكُ منْ أُمـورِ الكَونِ شَيْـئًا، وأَنَّ الأَمرَ للهِ وَحدَهُ. . ثُمَّ عـزَمَ عَلَى أَمرٍ يَقضِي بِهِ عَلَى إبراهِيمَ ويرِيحُ نَـفسَهُ منْ دَعوتهِ فجمَعَ رَعيَّتَهُ ونَادَى فيهمْ:

أَتدرُونَ مَاذَا يُريدُ هَذَا الفَتَى؟ إنَّهُ يُسَفِّـهُ آراءَكُمْ، وَيسْخَرُ منْ آلهَتكُمْ وآلِهةِ آبَائِكمْ، يُرِيدُ أنْ تكونَ لهُ الزَّعَامَةَ فِيكُمْ، فَماذَا تَرونَ لِنستَرِيحَ مِنهُ؟

قَالَ واحدٌ منْ ذَلكَ الجَمْعِ:

لاَ جزاءَ لمنْ يُسفِّهُ آراءَنَا وَيسْخَرُ منْ آلهَتِنَا إلاَّ الحرْقُ بالنَّارِ.

فَانتهزَ النَّمرودُ الفُرصَةَ بَعْدَ أَنْ أثارَ غَضبَ الجمَاهيرِ وقَالَ:

نَعمْ، نَعمْ، أَحرِقُوهُ، اجْمَعُوا الأَحطَابَ الكَثـيرَةَ، وَالأَخشَابَ الجَافَّةَ منْ كُلِّ مكَان، وأَوقدُوا نَارًا يَصلُ لَهبُهَا إلَى السَّمَاءِ، وأَلْقُوهُ فِيهَا. . نَعمْ، حَرِّقوهُ، وَانصُرُوا آلهَتكمْ إنْ كُنتمْ فَاعلينَ.

وَبدأَ النَّاسُ كُلُّهم رجَالاً ونسَاءً وَأَطفالاً يَشتركُونَ فِي جَمْعِ الأَحطَابِ وَالأَخشَابِ، وَجعلُوا منْهَا كَومَةً كالجبَلِ، وَأشعلوهَا، وَأَوْثقُوا إِبرَاهيمَ عَليه السَّـلامُ، وَقَيَّـدُوا يَدَيْهِ وَرجْليهِ بالحِـبَالِ، وَقَـذَفُوابهِ فِي وسَطِ جَـبلِ النَّارِ المُلْتهبِ، وَجَاءَ مَلَكُ الوَحْيِ جبريلُ عَليهِ السَّلامُ، وقَالَ:

مَا حـاجَتُكَ فِي هَذَا المْوقفِ يَا إبراهِيمُ؟ أَلستَ فِـي حَاجَةٍ لمسَـاعَدةٍ منِّي؟

وَبقلْبٍ ثَابتٍ عَلَى الإيمَـانِ مُطمئنٍّ إِلَى رِضَا رَبِّهِ عَـنْـهُ، قَالَ إِبرَاهِيمُ عَلَيْهِ السَّلامُ:

أَمَّا منْكَ فَلاَ. . وَأَمَّا منَ اللهِ، فَهوَ مُطَّلعٌ عَلَى حَالِي. .

وَلَمْ يَقبلْ إبرَاهِيمُ أَنْ يَشكُوَ اللهَ إِلَى خَلْقِهِ.

وَجَاءَ الأَمْـرُ منَ اللهِ. . منَ السَّمواتِ العُـلاَ. . إِلَى النَّارِ، قَالَ اللهُ: يَا نَارُ كُونِي بَرْدًا وسَلاَمًا عَلَى إِبرَاهِيمَ.

و. . سُبحَانَ الله، القَوىِّ القَادر، يأمرُ النَّارَ أنْ تكونَ بَرْدًا عَلَى إبرَاهيمَ، ولَكنْ لَيس البَرْدَ القارسَ الَّذى يَضُرُّ. . بَلْ بَرْدًا وسَلامًا، لاضرر فيه، ولا سَبَبَ لإيلامِ الجسَدِ أو إزعَاجِ الرُوح.

أمَّا كَيفَ تمكَّنُوا من إلقاء إبراهيمَ فى ذلكَ الجبَلِ الملتهب منَ النَّار الَّتي بَلغَتْ شدَّتُهَا إلَى الغَايَةِ فى القَسْوة، فَتلكَ حكَايَةٌ أخرَى يَقُولُ عَنْهَا الرُواةُ، بأنَّ القَومَ حَاولُوا إلقَاءَ إبراهيمَ فِى النَّارِ ولَكنَّهم لَمْ يَستَطيعُوا الاقترَابَ منهَا لشدة وهجهَا وحرهَا، فجَاءَ الشَّيطَانُ فى صورة واحد منهم وصنعَ لهُمُ المقْلاعَ، فكَانَ أداةً رفعُوا بهَا إبراهيمَ عَلَيه السَّلامُ وقَذَفُوا به إلَى وسط اللَّهب.

وَهلَّلَ القَوْمُ، وظَنُّوا أنهُمْ بذَلكَ قَد انْتَصرُوا لآلهَتهمْ.

مَكَثَ إبرَاهيمُ في تلكَ النَّارِ زَمنًا، حَتَّي ظَنَّ الجميعُ أنهُ قَد احْترقَ، وتفحمَتْ عظَامُه، وأنهُم لَن يَجدُوا لَهُ أثرًا، بعدَ أنْ تخبُو النَّارُ، ويَصير مكَانُهَا رماداً. .

وخمدت النَّارُ بعدَ مُدَّة، واجتمعَ النَّاسُ حَولَ رمَادهَا، ليَبْحثُوا عَن جُثمَانِ إبرَاهيمَ المتفحمِ، وفُوجئُوا به جَالسًا يأكُلُ ويشْربُ، لَمْ تَمسَّهُ النَّارُ بسُوء، وهو في أتمِّ صحة وعَافيَة، وأجملُ بهجَةً ونضَارةً، ولَمْ تحرق النَّارُ إلاَّ القُيُودَ الَّتي قَيدُوهُ بهَا، وأطاعَت النَّارُ أمرَ خَالقهَا فكانَت بردًا وسلامًا عَلَى إبرَاهيم.

شَاهَدَ النمرودُ هَذه المعْجزَة، فَبُهتَ، وأيقَنَ أنَّ دينَ إبرَاهيم هوَ الحقُّ، ولَكنَّه استكبرَ عَنِ الإيمانِ به، وكفَّ أذاهُ عَنْ إبرَاهيمَ، وتركَ لَهُ حُريةَ العبَادَة والدَّعوة لدينه كَيفَ شَاءَ.

أمَّا القَوْمُ، فَرغمَ مَا بَدَا لَهم منَ الآيَات، ومَا شَاهَدُوا منَ المعْجزَات لَمْ يؤْمنُوا ولَمْ تَطبْ نُفُوسُهم بالإذعَانِ لرسَالة الله عَزَّ وجَلَّ، إلاَّ لُوطًا عَليه السَّلامُ، ابن أخيه هَارونَ بنِ تَارحَ، فَقدْ آمنَ بدعْوة إبرَاهيم، وأوحَى الله إليه بعدَ ذَلكَ، وصَارَ نبيًا يَدعُو قَومَهُ إلَى محَاسنِ الأخْلاقِ ومكارمِ الأفْعالِ.

ثُمَّ تزوَّجَ إبراهيمُ سَارةَ بنتَ عَمِّهِ هارانَ الأكبرِ، الَّتي آمنتْ به وَصدَّقتْ برِسَالته، كَمَا آمنَ به عَدَدٌ منَ النَّاسِ، ولَكنَّهم كَتمُوا إيمَانَهُمْ خوفًا منَ النَّمرُودِ، ومنَ انْتقامه وانتقام قومه الْكَافرينَ.

وَعنْ كُلِّ هَذه الأَحداث نَقرأُ قَولَ الله تَعالَى:

﴿قَالُوا حَرِّقُوهُ وَانصُرُوا آلِهَتَكُمْ إِن كُنتُمْ فَاعِلِينَ ﴿٦٨﴾ قُلْنَا يَا نَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلامًا عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ ﴿٦٩﴾ وَأَرَادُوا بِهِ كَيْدًا فَجَعَلْنَاهُمُ الأَخْسَرِينَ ﴿٧٠﴾ وَنَجَّيْنَاهُ وَلُوطًا إِلَى الأَرْضِ الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا لِلْعَالَمِينَ﴾ [الأنبياء: ٦٨ - ٧١].

كَمَا يُحدِّثنا القُرآنُ الكريمُ عَنْ موقفٍ آخرَ، فيقُولُ اللهُ جَلَّ شأنُهُ:

﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لأَبِيهِ آزَرَ أَتَتَّخِذُ أَصْنَامًا آلِهَةً إِنِّي أَرَاكَ وَقَوْمَكَ فِي ضَلالٍ مُّبِينٍ ﴿٧٤﴾ وَكَذَلِكَ نُرِي إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ الْمُوقِنِينَ ﴿٧٥﴾ فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ رَأَىٰ كَوْكَبًا قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لا أُحِبُّ الآفِلِينَ ﴿٧٦﴾ فَلَمَّا رَأَى الْقَمَرَ بَازِغًا قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَئِن لَّمْ يَهْدِنِي رَبِّي لأَكُونَنَّ مِنَ الْقَوْمِ الضَّالِّينَ ﴿٧٧﴾ فَلَمَّا رَأَى الشَّمْسَ بَازِغَةً قَالَ هَذَا رَبِّي هَذَا أَكْبَرُ فَلَمَّا أَفَلَتْ قَالَ يَا قَوْمِ إِنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴿٧٨﴾ إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ حَنِيفًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿٧٩﴾ وَحَاجَّهُ قَوْمُهُ قَالَ أَتُحَاجُّونِّي فِي اللَّهِ وَقَدْ هَدَانِ وَلا أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِ إِلاَّ أَن يَشَاءَ رَبِّي شَيْئًا وَسِعَ رَبِّي كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا أَفَلا تَتَذَكَّرُونَ ﴿٨٠﴾ وَكَيْفَ أَخَافُ مَا أَشْرَكْتُمْ وَلا تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُم بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَانًا فَأَيُّ الْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِالأَمْنِ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨١﴾ الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُم بِظُلْمٍ أُوْلَئِكَ لَهُمُ الأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ ﴿٨٢﴾ وَتِلْكَ حُجَّتُنَا آتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ عَلَىٰ قَوْمِهِ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَّن نَّشَاءُ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ﴾

[الأنعام: ٧٤ - ٨٣].

وَيقُولُ الحَقُّ عَزَّ وجَلَّ:

﴿ وإِنَّ من شيعته لإبْراهيم ﴿٨٣﴾ إِذْ جاءَ ربَّهُ بقلْبٍ سليمٍ ﴿٨٤﴾ إِذْ قَال لأَبيه وقَوْمه ماذَا تعْبُدُونَ ﴿٨٥﴾ أئفْكًا آلهَةً دُونَ اللَّه تُريدُونَ ﴿٨٦﴾ فما ظنُّكم بربّ الْعالمين ﴿٨٧﴾ فنظر نَظْرَةً في النُّجُوم ﴿٨٨﴾ فقال إنّي سقيمٌ ﴿٨٩﴾ فتولَّوْا عنْهُ مُدْبرين ﴿٩٠﴾ فراغَ إلَىٰ آلهتهمْ فقال ألا تأْكُلُون ﴿٩١﴾ ما لكُمْ لا تنطقون ﴿٩٢﴾ فراغَ عليْهمْ ضرْبًا باليمين ﴿٩٣﴾ فأقْبلوا إليْه يزفُّون ﴿٩٤﴾ قَالَ أتعْبُدُونَ ما تنْحتُونَ ﴿٩٥﴾ واللَّهُ خلقكُمْ وما تعْمَلُونَ ﴿٩٦﴾ قَالُوا ابْنُوا له بُنْيانًا فأَلْقُوهُ في الْجَحيم ﴿٩٧﴾ فأَرَادُوا به كيْدًا فجعلْنَاهُمُ الأَسْفَلِينَ ﴿٩٨﴾ وقَال إنّي ذَاهبٌ إلَىٰ ربّي سيهْدين﴾ [الصافات: ٨٣ - ٩٩].

كَمَا قَالَ سُبحانَهُ وتعالَى:

﴿ واتْلُ عَلَيْهمْ نبأَ إبْراهيم ﴿٦٩﴾ إذْ قَالَ لأَبيه وقَوْمه ما تعْبُدُونَ ﴿٧٠﴾ قَالُوا نعْبُدُ أصْنامًا فنَظَلُّ لها عاكفين ﴿٧١﴾ قَالَ هلْ يسْمعُونكُمْ إذْ تدْعُونَ ﴿٧٢﴾ أوْ ينفعُونكُمْ أوْ يضُرُّونَ ﴿٧٣﴾ قالُوا بلْ وجدْنا آباءَنا كذَلك يفْعلُونَ ﴿٧٤﴾ قال أفرأَيْتُم مَّا كُنتُمْ تعْبُدُونَ ﴿٧٥﴾ أنتُمْ وآباؤُكُمُ الأَقْدمُونَ ﴿٧٦﴾ فإنَّهُمْ عدُوٌّ لّي إلاَّ ربَّ الْعالمين ﴿٧٧﴾ الَّذي خلقَني فهُو يهْدين ﴿٧٨﴾ والَّذي هُو يُطْعمُني ويسْقين ﴿٧٩﴾ وإذا مرضْتُ فهُو يشْفين ﴿٨٠﴾ والَّذي يُميتُني ثُمَّ يُحْيين ﴿٨١﴾ والَّذي أطْمعُ أن يغْفر لي خطيئَتي يوْم الدّين ﴿٨٢﴾ ربّ هبْ لي حُكْمًا وألْحقْني بالصَّالحين ﴿٨٣﴾ واجْعل لّي لسان صدْقٍ في الآخرين ﴿٨٤﴾ واجْعلْني من ورثَة جنَّة النَّعيم ﴿٨٥﴾ واغْفرْ لأَبي إنَّهُ كان من الضَّالّين ﴿٨٦﴾ ولا تُخْزني يوْم يُبْعثُونَ ﴿٨٧﴾ يوْمَ لا ينفعُ مالٌ ولا بنُونَ ﴿٨٨﴾ إلاَّ منْ أتى اللَّه بقلْبٍ سليمٍ﴾ [الشعراء: ٦٩ - ٨٩].

إبراهيمُ المهاجرُ في سبيلِ اللهِ

تَركَ إبراهيمُ مَوطنَهُ، ورَحلَ معَ زَوْجتِه سارةَ وابنِ أخيه لُوط إلَى أرضِ الشَّامِ، بَعدَ أن يئسَ من قَبولِ قومِه لدَعوتِه، وتَوجَّه إلَى أرضِ الكَلْدانيين ثُمَّ إلَى حارانَ، ثُمَّ إلَى فلسطينَ، كُلُّ ذلكَ هجرةً في سَبيلِ الله والدَّعوةِ إلَى توحيدِه جلَّ شَأنُه، حتَى سمَّاه بعضُ المؤرِّخين «النَّبيَّ السَّائحَ»، وسكَنَ في مَدينة شكيم التَّي هي نَابلسُ حاليًا، وتنقَّل في أرضِ فلسطينَ؛ فلمَّا ابْتليتْ أرضُ فلَسْطينَ بالقَحطِ والجدْبِ، تركَها وجاءَ مُهاجرًا إلَى مصر.

جاءَ إبراهيمُ إلَى مصرَ في زمنِ (الهكسُوس) وكَانُوا يُسمَّونَ (مُلوكَ العَماليق) ومعَهُ زوجتُه سارةُ، وكَانَتْ رائعةَ الجمَالِ رغمَ أنَّ عُمرَها آنذاكَ كَانَ حَوالي السَّبْعينَ عامًا، ولَمَّا علِمَ الملكُ عَنْ طَريقِ أعوانه بجمَالِ سارةَ البَاهرِ الأخاذِ، سأَلَ إبراهيمَ عنهَا، فاتَّفقَ إبراهيمُ معَ سارةَ، أنْ تقُولَ أنَّها أُختُهُ، حتَّى لاَ يَبطشَ بهَا الملكُ، وهيَ حقًّا أُختُهُ في الدِّينِ، وبذلِكَ لَمْ يكنْ إبراهيم ولاَ سارةَ من الكَاذبين.

طَلَبَ الملكُ سارةَ، وذَهَبَ بها الحرسُ لمقَابلته، وظلَّ إبراهيمُ يُصلِّى ويَدعُو اللهَ أنْ يحفظَ زوجتَه، كمَا كانتْ سارةُ تَدعُو اللهَ أيضًا أنْ يحفظَها منْ أيِّ شرٍّ أو كيْدٍ يُريدُهُ الملكُ، وحَاولَ الملكُ مُداعبتَهَا فمدَّ يدَهُ ليلْمسَها، فَيبِست يَدهُ، وشُلَّتْ، فوجَفَ قَلبُ الملكِ وَارتَعبَ، وعرفَ أنَّ وراءَ هذه المرأةِ قُوةً تَحميهَا، فطلَبَ منهَا أن تدعُوَ ربَّها ليفُكَّ يَدَهُ عن تَيبسِّهَا. وَدعتْ سارةُ، فَاستجَابَ اللهُ دُعاءَها، فعَادتْ يدُ الملكِ صَحيحةً سليمةً لاَ تَيبس فيهَا ولاَ شَلل.

ولَمْ يتعظ الملكُ بذلكَ فحاولَ مَرةً أخرَى أنْ يُداعبَ السَّيدَةَ سارةَ، وَمرةً ثانيةً تَشُلُّ يدُه وتَتيبسُ فَلاَ يَستطيعُ أنْ يُحرِّكهَا، ومرةً أُخرَى يَطلُبُ منهَا أن تدعُوَ ربَّهَا، فَتدعُو، وتعودُ يدُه إلَى صِحتِّها وسلاَمتِهَا.

وأيقنَ الملكُ بأنَّ وراءهَا قوةً تحميـهَا، وأنه لَنْ يَستطيعَ أن ينالَ منهَا شيئًا، فأمرَ الحرَسَ أَنْ يتركُوهَا وشأنَهَا، وكَانَ عندَ الملك جَاريةٌ مصريَّةٌ من جنوب مصر اسمهَا هَاجر، فأهدَاهَا إِلَى سارة، ومنح إبراهيمَ عليه السَّلامُ قطيعًا منَ البقرِ والأغنام.

وعَادَ الجمـيعُ مرَّةً أخرَى إلَى الشَّام، وقدْ حفظ اللهُ نبيَّـهُ وزوجتهُ، وكَانَ إبرَاهيمُ قـد بلغَ الثَّمانين من عمـره، كمَا بلغَتْ سارة السَّبعينَ من عمرِهَا. ومعَ ذلكَ العُمرِ الطَّويلِ لَمْ يُنجبَا ذُريَّةً، ولَمْ تقرَّ أعينُهُمَا بأولادَ.

إبرَاهيمُ يتزَوَّجُ هَاجرَ

بَعدَ أن استـقرَّ إبرَاهيمُ عليه السَّلامُ معَ أهلـه فى أرض الشَّام، كَانَ وَحيدًا لاَ ولَدَ لَهُ، وفـكَرتْ سارةٌ فى هَذَا الأمْر، وَهِىَ تَعرفُ أنهَـا عقيمٌ لاَتَلدُ، وَتتـمنَّى أنْ يهبَ اللهُ لإبـرَاهيمَ ذُرِّيَّةً تَحـملُ الرِّسَـالَةَ من بعْـده، فَوهبتْ لَهُ جاريتَهَا هَاجر، وقالَتْ لَهُ:

إنى أرَاهَا امرَأةً فى وَجْههَا نُورٌ، لَعلَّ اللهَ أنْ يرزُقَكَ منهَا بولَد.

وكَانَ إبرَاهـيمُ عليه السَّـلامُ كثيرًا مَا يدعُـو ربَّهُ أن يهبَـهُ ذُريةً من الصَّالحـين، فَاستـجَابَ اللهُ دُعاءَ نَبيِّـه وَخليله. فَتزوَّجَ هَاجَـرَ المصريَّةَ، فأنجبَتْ لَهُ إسْماعيلَ عليه السَّلامُ، ورغْمَ أنَّ سَارَةَ هى الَّتى وَهبتْ إبراهيمَ هَاجَرَ، إلاَّ أنَّ الغَيرةَ الطَّبِّيعيَّةَ فى النِّساء غَلبتْ عليهَا، فَطلبتْ من إبرَاهيم أن يَبحَثَ لهَاجرَ وَابنهَا عَنْ مكَانٍ يعَيشَانِ فيه بعيدًا عنهَا.

أَخذَ إبرَاهيمُ هَاجـرَ وَابنهَا الرَّضيعَ وَسارَ فى الصَّـحراء، وَهوَ مُوقنٌ بأنَّ اللهَ سَيهـديه إلَى مكان آمن يَعيشَـان فيه، وَاسْتقـرَّ به الأمرُ فى أرضِ فَارانَ الَّتى أُنـشئَتْ فيـهَا مَكةُ بعْـدَ ذَلك، بجَوار الكَعْـبة الَّتى كَـانَتْ قد انْدثرت وبقـيَتْ قَواعـدُهَا فى الأرضِ لاَ ترَاهَا العُيـونُ، وَهنَاكَ فى مكَانَ جَدْبٍ قَحطَ تَركَ إبرَاهيمُ هَاجرَ وَإسمَاعـيلَ، وكرَّ رَاجعًا إلَى الشَّامِ. فلمَّا أَيقنَتْ هَاجرُ أَنَّ إبرَاهيم سيتركُهَا وَوليدَهَا وَحدهمَا فى ذَلكَ المكَانِ سأَلتْه، وقالَتْ:

يَا إبرَاهِيمُ، هَلْ سَتترُكُنْا فِى هَذَا المَكَانِ وَحدَنَا.. هَلْ أَمركَ اللهُ بِهَذَا؟

وَلَم يردَّ عَليَهَا إبراهِيمُ، وَإِنَّما هزَّ رأسَهُ عَلامةَ المُوافقَة، فقَالتْ:

إذَنْ، لَنْ يُضيِّعنَا اللهُ أبدًا.

وَلِهذِهِ القِصَّةُ تفَاصِيلُ سَنسردُهَا فِى قِصَّة إسْمَاعِيلَ عَليه السَّلامُ.

إبراهيمُ ينجِبُ إسحاقَ عليهما السلامُ

لَمْ يَمضِ وَقتٌ طَوِيلٌ عَلَى اسْتقرَار إبرَاهِيمَ فِى الشَّام مَعَ زَوجَته سَارةَ، بَعْدَ أَنْ تَركَ هَاجرَ وَابنَهَا إسماعيلَ فِى أَرضِ فَارانَ، حتَّى رزَقَهُ اللهُ بِوَلده إسْحاقَ، مِنْ زَوجَته سَارةَ الَتى كَانتْ عَقيمًا لاَ تَلدُ.

جَاءت المَلائكَةُ فِى صُورة بَشَر، نَزلُوا ضُيُوفًا عَلَى إبرَاهِيمَ عَلَيْه السَّلامُ، وَبَشَّرُوا إبراهِيم وسَارةَ بأنهُمَا سَيُنجبَان وَلَدًا اسْمهُ إسْحَاقُ، وكَانَتْ سَارةُ قدْ بلَغَت التِّسعينَ من عُمرهَا، وَكَانَتْ بُشرَى طَيبةً وغَريبةً فِى الوقْت نفْسه، ولَكنَّ البشْرَى امْتدَّتْ إلَى مَا بعدَ إسحَاقَ، إذ قَالت المَلائكةُ لإبَرَاهِيمَ، أنه سيرَى حَفيدَهُ يَعقوبَ بن إسحَاقَ عليهِمُ السَّلامُ.

وَتعجَّبتْ سَارةُ مِنْ بُشرَى المَلائكَة، وَأعربَتْ عَن عَجَبهَا هَذَا بقولهَا:

عَجبًا! أأَلدُ وَأنَا عَجُوزٌ، وَهذَا زوْجِى شَيخًا قد بلَغَ مِنَ الكِبرَ عتِيًّا.

فقَالت المَلائكَةُ: أَتعجبِينَ مِنْ أَمرِ الله، رَحمَةُ الله وبركَاتهُ عليْكم أَهلَ البيت إنهُ حَميدٌ مَجيدٌ.

وَفرِحَ إبرَاهِيمُ بالبُشْرى، وَاكتملَتْ سَعَادتُهُ بتحقْيقهَا إذ وَهَبهُ اللهُ إسمَاعيلَ مِنْ هَاجرَ، وَإسحَاقَ مِنْ سَارةَ، فكَانَ منْهُ الحَمدُ لله والشُّكر عَلَى مَا أنعمَ، فاتَّجه إلَى الله بالحمْد والدُّعاء، قَالَ:

﴿الْحَمْدُ للهِ الَّذِى وَهَبَ لِى عَلَى الْكِبَرِ إِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِنَّ رَبِّى لَسَمِيعُ الدُّعَاءِ (٣٩) رَبِّ اجْعَلْنِى مُقِيمَ الصَّلاةِ وَمِن ذُرِّيَّتِى رَبَّنَا وَتَقَبَّلْ دُعَاءِ (٤٠) رَبَّنَا اغْفِرْ

لِى وَلِوَالِدَىَّ وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ الْحِسَابُ﴾ [إبراهيم: ٣٩ - ٤١].

سُنَنُ الْخَلْقِ

مِنَ السُّنَنِ الَّتِى سَنهَا اللهُ عَزَّ وجَلَّ عَنْ طَرِيقِ إِبرَاهِيمَ عَليه السَّلامُ:

* سُنَّةُ البسْمَلَةِ، عندَ أَولِ الطَّعامِ، وَالحمْدُ فى آخرِه.

فَقد قِيلَ أَنَّ المَلائكَةَ عندَمَا جَاءَتْ إِبرَاهِيمَ بالبشْرَى، ذَبحَ لَهمْ عِجلاً سَمِينًا وَقربهُ منهُمْ ليأكُلُوا، فقَالُوا: إِنَّنا لاَ نأكُلُ الطعَامَ إِلاَّ بِثمَنٍ.

قَالَ إِبرَاهِيمُ: فَإِنَّ لهذَا الطَّعامَ ثمنًا.

قَالُوا: ومَا ثَمنُهُ؟

قَالَ عَليه السَّلامُ: تذكُرونَ اسمَ اللهِ عَلَيهِ عَلَى أوَّلِه، وتَحمدُونَهُ عزَّ وجَلَّ علَى آخرِه.

فَنظرَ المَلائكَةُ بعْضُهُمْ إِلَى بَعضٍ، وقَالُوا: حَقَّ لهذَا أنْ يتَّخذَهُ ربُّهُ خَلِيلاً.

* سُنَّةُ الختَان:

وَقدْ عَهدَ اللهُ إِلَى إِبرَاهيمَ عَليه السَّلامُ بالختَانِ، وكَانَ عُمرهُ إِذْ ذَاكَ تسعةً وتسعينَ عَامًا، وكَانَ عُمرُ إِسْمَاعيلَ عَليه السَّلامُ ثَلاثَ عَشرة سَنَةً، فَاختتَنَ إِبرَاهِيمُ وإِسمَاعِيلُ، وكَلُّ من كَانَ لإِبرَاهِيمَ مِنَ العَبِيدِ.

* سُنَنُ الطَّهارة:

وَسنَّ لنَا إِبرَاهِيمُ الخَلِيلُ خَمْسَ سُنَنٍ للطَّهارَةِ، فِى الرَّأسِ وَخمسٌ فِى الجسَدِ: فأَمَّا الخَمْسةُ الَّتِى فِى الرأْسِ فَهِىَ: قَصُّ الشَّارِبِ، والمضمَضةُ وَالاسْتنشَاقُ، والسِّواكُ، وفَرْقُ الرأسِ.

وَأمَّا الخَمسَةُ التِى فِى الجسَدِ فهِىَ: تَقلِيمُ الأَظافِرِ، وحَلقُ العَانِةِ، والخَتَانُ، ونتفُ الإِبطِ، وغسلُ أثرِ البولِ والغَائطِ بالماءِ.

* وَمِنْ سُنَنِ إِبرَاهِيمَ عَليهِ السَّلامُ أَيضًا: الغُسلُ يومَ الجمُعةِ.



* سُنَنٌ فِى المشَاعِرِ المقدَّسة:

الطَّوافُ حَولَ الكَعْبةِ سبعةَ أشواطٍ ابْتداءً منَ الحجَرِ الأسود.

السَّعىُ بينَ الصَّفَا والمرْوةِ سبعةَ أشواطٍ تَبدأُ مِنَ الصَّفَا وتَنْتَهى بالمرْوة.

رَمْىُ الجمارِ فِى يومِ النَّحرِ وفِى أيَّامِ التَّشريقِ.

الإِفَاضَةُ.

لِكَىْ يَطْمَئِنَّ قَلْبِى

إنَّ الاطْمِئْنَانَ الحقيقىَّ هُوَ الإيمَانُ باللهِ عزَّ وجَلَّ حَقَّ الإِيمانِ، وثِقَةَ القَلْبِ والعَقْلِ ووعيُهُمَا بِتوحيدِ اللهِ تعالَى والإيمَانِ به.

وكَانَ سَيدُنَا إبرَاهيمُ مُطمئنًا بالإيمَانِ بعدَ أنْ رأَى آياتِ ربِّه مُنذُ الصِّغَرِ، وقَدْ أوحَى اللهُ إلَى نبيِّه أنهُ سَيُحْيِى الموْتَى يومَ القيامَةِ، للبعْثِ والنُّشورِ، فيجازى المحسنَ بإحسَانه، والمسىءَ بإسَاءَته، وقَدْ أرادَ إبراهيمُ أنْ يَطمئنَّ قلبهُ إلَى ذَلكَ، فسأَلَ اللهَ سُبحانَهُ وتعَالَى أنْ يُريهُ ميتًا عادَ حيًّا، فقالَ: ربِّ أرنى كيفَ تُحيى الموْتَى.

فقالَ اللهُ لَهُ: أوَ لَمْ تُؤمنْ يا إبرَاهيم؟

فأجابَ بسرْعةٍ وبلَهفةِ المؤمنِ، قَالَ: بلَى، أنا مُؤمنٌ حقَّ الإيمَانِ، ولَكِنْ ليطْمئنَّ قَلْبِى.

قَالَ اللهُ لَهُ: فُخذْ أربعةً منَ الطَّيرِ، فَاذبحْهَا، وقَطِّعْهَا قطعًا صَغيرةً، وقسِّمهَا إلَى أجزَاءٍ كَثيرَةٍ، ثُمَّ اخلطْ بعضَهَا ببعْضٍ، وخُذْ كُلَّ مجموعةٍ منْ لحمِ هَذه الطُّيورِ وعظَامهَا، فَضعهَا علَى جبلٍ منَ الجبَالِ. وعَملَ إبراهيمُ مَا أمَرهُ اللهُ بهِ، وفرَّقَ أجزاءَ الطُّيورِ المخْتلطةَ فَوقَ الجبَالِ، ثمَّ أمَرهُ اللهُ أنْ ينَادىَ هَذه الطيُورَ، فنَادَى إبراهيمُ قَائلاً: أيتُها الطُّيورُ تَعالَى بأمْرِ اللهِ.

وتلفّتَ إبراهيمُ حوْلَهُ، فإذا بأجْزاء الطُّيور تطيرُ بعضُها إلَى بعْض، وتتكوّنُ أعضاؤها فى أجْسامها منْ جديد، والعظْمُ واللّحمُ والريشُ، وإذا بكُلِّ طيْر يعُودُ صحيحًا سليمًا كمَا كانَ، وإذا بالطيُور تطيرُ إليه حيَّةً بإذن ربِّهَا، واطمأنَّ قلبُ إبراهيمُ إلَى قُدرة الله، ورأى بعَينى رأسه، كيفَ يحيى اللهُ الموتَى.

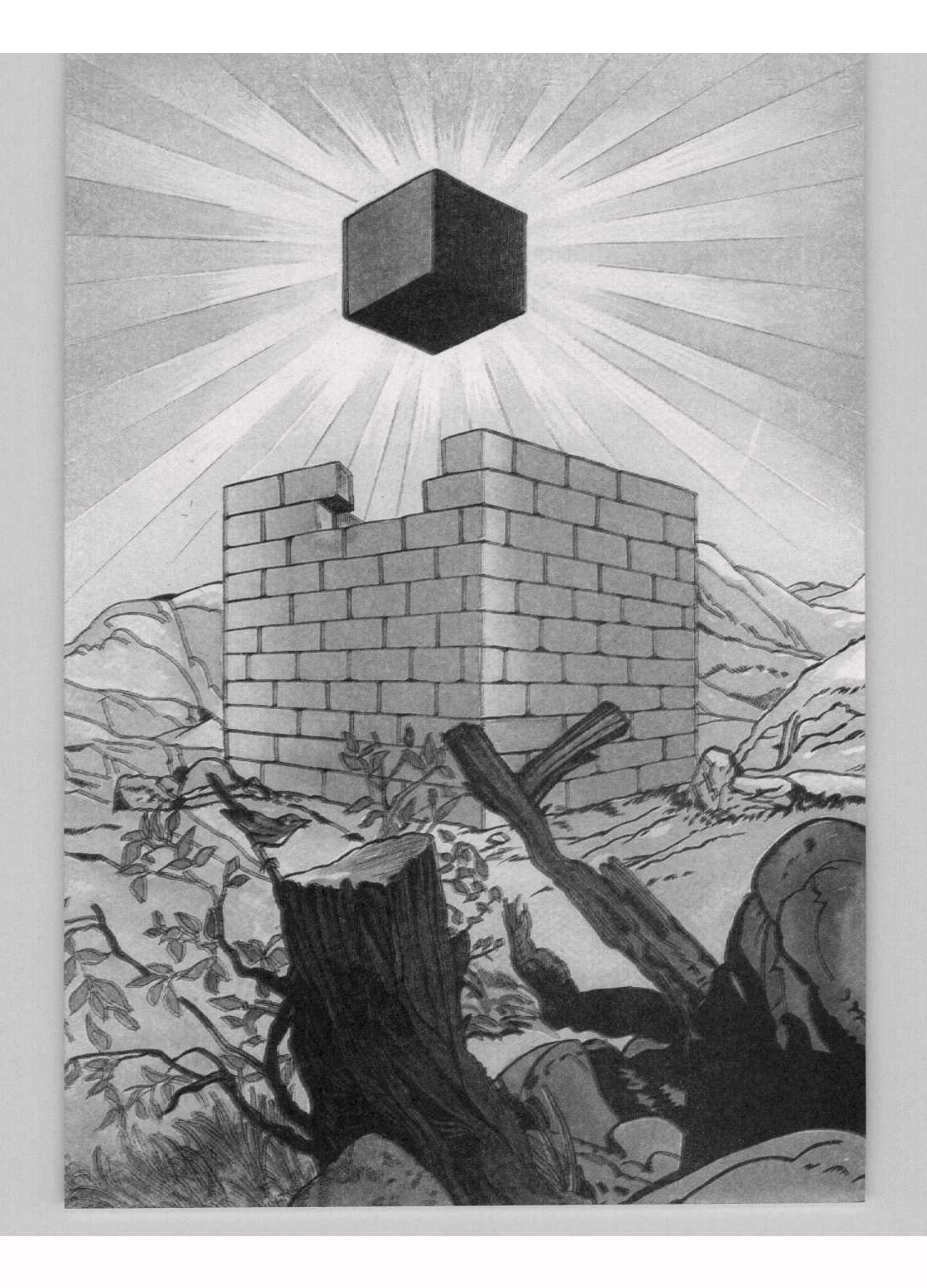
قالَ اللهُ تَباركَ وتعالَى فى ذَلكَ:

﴿وإذْ قالَ إبْرَاهيمُ ربِّ أرني كيْفَ تُحيي الْموْتَىٰ قالَ أوَلَمْ تُؤْمن قالَ بلَىٰ ولكن ليَطْمَئنَّ قلْبي قالَ فخُذْ أربعةً من الطَّيْر فصُرْهُنَّ إليْكَ ثُمَّ اجْعلْ علَىٰ كُلِّ جبلٍ منهُنَّ جزْءًا ثُمَّ ادْعُهُنَّ يأتينك سعْيًا واعْلمْ أنَّ اللَّهَ عزيزٌ حكيمٌ﴾ [البقرة: ٢٦٠].

بناءُ بيتِ اللهِ الحرامِ (الكعبة)

أمرَ اللهُ سُبحانهُ وتعالَى نبيَّهُ إبراهيمَ عليه السَّلامُ بأنْ يرفعَ قواعدَ بيت الله الحرام بمكّةَ المكرمة، وهو أولُ بيت وُضعَ للنّاس في الأرض لعبَادة الله عزَّ وجلَّ، وكانَ قدَ اندثرَ وضاعَتْ آثارُهُ بعدَ طُوفانِ نُوحٍ عليه السَّلامُ.

وكانَ إسماعيلُ عليه السَّلامُ يعيشُ فى مكّةَ بجوار الكعبة، فتوجَّهَ إبراهيمُ بعدَ أنْ جاءهُ أمرُ الله تعالَى بذلكَ، إلَى مكّةَ التى كثيرًا ما تردَّدَ عليهَا لزيارة ولده إسْماعيلَ، وهُناكَ وجدَ ابنهُ جالسًا يبرى النِّبالَ، فالتقيَا بشوق الوالد إلَى ولده، والولد إلَى أبيه، وأخبرَ إبراهيمُ ولدَهُ إسماعيلَ عليهمَا السَّلامُ بما كلَّفهُ اللهُ إيّاهُ، أنْ يقيمَا قواعدَ بيت الله الحَرام، وأن يبنيَا الكعبةَ المشرّفةَ، فرحَّبَ إسماعيلُ عليه السَّلامُ بهذَا التكْليف، وبدأ العملَ معَ أبيه، فكانَ إسماعيلُ يحملُ الحجارةَ منَ الجبَل، وإبراهيمُ يضعُها فى أماكنهَا منَ البناء، ولمَّا ارتفعَ البناءُ وضعَ إبراهيمُ حجرًا ليقفَ عليه ويبنى الأجزاءَ العاليةَ منَ الكعبة، وهوَ الحجرُ الموجُودُ حاليًّا أمامَ الكعْبَة فى مقام إبراهيمَ وبه آثارُ قدمه عليه السَّلامُ. وأتَّم إبراهيمُ وإسماعيلُ البناءَ، ليقُومَ أولُ بيتٍ وُضعُ للنَّاسِ فى الأرضِ.



ثُمَّ طَلبَ إبرَاهيمُ من ربِّه، أنْ يريَهُ مناسكَ الطَّواف، وكَيفيَّةَ الحجِّ، فَأَرسَلَ اللهُ جبريلَ عليه السَّلامُ، ليعلِّمَ إبراهيم هذه المناسكَ، وبعدهَا أمرَ اللهُ نبيَّهُ أنْ ينادىَ النَّاسَ ليحجُّوا إلَى بيت الله المَحَرَّمِ، ودُهشَ إبراهيم عليه السَّلامُ، إذْ كيفَ ينادى النَّاسَ جميعًا من خلف جبال مكَّةَ العَاليَة، ليحُجُّوا، ومَن الَّذى سيَستمعُ إليْه، ومَن الَّذى سَيجيبُهُ. وَطمأنه اللهُ عَن طرِيقِ الوَحْىِ قَائلاً: يَا إبرَاهيمُ، إنَّمَا عليْكَ الأَذانُ وعَلينَا البَلاَغُ.

ووَقفَ إبرَاهيمُ علَى أحد جبَال مكةَ ونَادَى: أيهَا النَّاسُ، إنَّ اللهَ قَدْ كَتبَ عَليكُمُ الحجَّ، فحُجُّوا.

وَأسمَعَ اللهُ ذلكَ النِّداءَ كَافةَ النَّاسِ فِى كُلِّ زمَان، وكُلِّ مكَان، حتَّى مَنْ كَانُوا فِى أصلاَبِ الرِّجَال وأرحَام الأمَّهات.

وعَنْ بناء الكَعبَة يُروَى أنَّ إبرَاهيمَ عَليه السَّلامُ بَعدَ أنْ أتمَّ البنَاءَ وَجدَ أنَّ هُنَاكَ مكانًا لحجَرٍ نَاقص، فَلمْ يُعجبْه ذلكَ، فطَلبَ مِنْ إسمَاعيل أنْ يأتيَهُ بحجَرٍ، فَأَتَاه بحجَرٍ لَمْ يعجبْهُ، فَالتمَسَ إسمَاعيلُ حَجرًا آخرَ، وَجاءَ إلَى والده به، فوجَدَهُ قدْ وَضعَ الحجَرَ الأَسودَ فِى مكانه، فقَالَ إسمَاعيلُ: يَا أبتِ مَنِ الَّذى أتاكَ بهذَا الحجَرِ؟

فقَالَ إبراهيمُ: أتانِى بِهِ مَنْ لَمْ يَتَّكلْ عَلَى بنائكَ، أتانِى بِهِ جبريلُ منَ السَّماء.

قَالَ اللهُ عزَّ وجلَّ عَنْ ذَلكَ، وعَنْ دَعوة إبرَاهيمَ النَّاسِ للحَجِّ.

﴿ وإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا الْبَلَدَ آمِنًا وَاجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَن نَّعْبُدَ الأَصْنَامَ ﴿٣٥﴾ رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ فَمَن تَبِعَنِي فَإِنَّهُ مِنِّي وَمَنْ عَصَانِي فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣٦﴾ رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِندَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلاةَ فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِّنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ وَارْزُقْهُم مِّنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ ﴾ [إبراهيم: ٣٥ - ٣٧].

وقالَ عزَّ وجلَّ:

﴿وأَذِّن في النَّاس بالْحجِّ يأْتُوك رجالاً وعَلَىٰ كُلِّ ضامرٍ يأْتين من كُلِّ فجٍّ عميقٍ ﴿٢٧﴾ ليشْهدوا منافع لهم ويذْكُروا اسْم الله في أيَّام مَّعْلُومات علَىٰ ما رزقهُم مّن بهيمة الأنْعام فكُلُوا منْها وأَطْعموا البائس الْفقير ﴿٢٨﴾ ثُمَّ ليقْضوا تفثهُم وليُوفُوا نُذُورهم وليطَّوَّفُوا بالْبيْت الْعتيق ﴿٢٩﴾ ذلك ومن يُعظِّمْ حُرمات الله فهُو خيْرٌ لَّهُ عند ربه وأُحلَّتْ لكُمُ الأنْعامُ إلاَّ ما يُتْلَىٰ عليْكُمْ فاجْتنبوا الرِّجْس من الأوْثان واجْتنبوا قوْل الزُّور ﴿٣٠﴾ حُنفاء لله غيْر مُشْركين به ومن يُشْركْ بالله فكأنَّما خرَّ من السَّماء فتخْطفُهُ الطَّيْرُ أوْ تهْوي به الرِّيحُ في مكانٍ سحيقٍ ﴿٣١﴾ ذلك ومن يُعظِّمْ شعائر الله فإنَّها من تقْوى الْقُلُوب ﴿٣٢﴾ لكُمْ فيها منافعُ إلَىٰ أجلٍ مُّسمًّى ثُمَّ محلُّها إلى الْبيْت الْعتيق﴾ [الحج: ٢٧ - ٣٣].

صُحفُ إبراهيمَ

أَنزلَ اللهُ عَلَى سيدنَا إبرَاهيمَ عَلَيه السَّلامُ عشرَ صَحائفَ، كَانتْ كُلُّها أمثَالاً وحكَمًا منهَا:

أيهَا الملكُ المسَلَّطُ المبتلَى المغْرور، إنِّي لَمْ أَبعثْكَ لتجمعَ الدُّنيَا بَعضَهَا إلَي بَعْضٍ، وَإنمَا بعثْتُكَ لتردَّ عنِّي دَعوةَ المظْلومِ، فَإنِّي لاَ أَردُّهَا ولو كَانتْ من كَافرٍ.

ومنهَا:

* عَلَى العَاقلِ مَا لمْ يكُنْ مَغلوبًا علَى عَقْله، أَنْ تكُونَ لَهُ سَاعاتٌ:
- سَاعةٌ ينَاجي فيهَا ربَّهُ.
- وَسَاعةٌ يفكِّرُ فيهَا في صُنعِ اللهِ عَزَّ وجَلَّ.
- وسَاعةٌ يحَاسبُ فيهَا نَفسهُ.
- وسَاعةٌ يخلُو فيهَا لحَاجَته منَ الحلال في المطْعمِ والشَّرابِ.

* عَلَى العَاقلِ ألاَّ يكُونَ ظَاعنًا إلاَّ في ثَلاث:
- تَزوُّدهُ لمعَاده، ومَرمَّه لمعَاشه، ولَذَّةٌ في غَيرِ محَرمٍ. ومَنْ حَسبَ كَلامَهُ من عَمله قَلَّ كَلامُهُ إلاَّ فيمَا يَعنيه.

وَصدَق اللهُ عزَّ وجلَّ حيثُ يَقولُ:

﴿ قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكَّىٰ ﴿١٤﴾ وَذَكَرَ اسْمَ رَبِّهِ فَصَلَّىٰ ﴿١٥﴾ بَلْ تُؤْثِرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا ﴿١٦﴾ وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ ﴿١٧﴾ إِنَّ هَٰذَا لَفِي الصُّحُفِ الْأُولَىٰ ﴿١٨﴾ صُحُفِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ ﴾ [الأعلى: ١٤ - ١٩].

وَفاةُ إبراهيمَ عليهِ السَّلامُ

تُوُفِّيَ سَيدُنَا إبرَاهيمُ عَليهِ السَّلامُ، وَعمرُه مائةٌ وَخمسٌ وسبعونَ سَنةً.

ودَفَنَهُ وَلَداهُ إسمَاعيلُ وَإسحَاقَ فِي مَغارة المكْفيلَة فِي حَقْلِ عفرونَ ابن صَرصرَ الحِثِّيِّ، وفيهَا دُفنتْ زَوجَتهُ سَارةُ مِنْ قَبلُ، وَهوَ الموضعُ الَّذي عَليه مَقامُ إبراهيمَ الخَليلِ حَاليًّا فِي مَدينَة حَبرونَ، وتُسمَّى الآنَ مَدينَةُ الخَليلِ، بفلسطينَ، وكَانَ اسمُهَا فِي الأَصلِ قَريَةُ أَربع.

وَحقًّا.. لَقَدْ أَتمَّ سيدُنَا إبراهيمُ عَليهِ السَّلامُ رسَالَةَ ربِّه، وَاستَحقَّ بِحقٍّ لَقبَ «خَليلُ اللهِ» وَ«أبو الأَنبياء».

قَالَ تعَالَى:

﴿ وَإِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ وَأَمْنًا وَاتَّخِذُوا مِن مَّقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى وَعَهِدْنَا إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ أَن طَهِّرَا بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْعَاكِفِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ ﴿١٢٥﴾ وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَٰذَا بَلَدًا آمِنًا وَارْزُقْ أَهْلَهُ مِنَ الثَّمَرَاتِ مَنْ آمَنَ مِنْهُم بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ قَالَ وَمَن كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُ قَلِيلًا ثُمَّ أَضْطَرُّهُ إِلَىٰ عَذَابِ النَّارِ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ ﴿١٢٦﴾ وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿١٢٧﴾ رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَا إِنَّكَ أَنتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ﴿١٢٨﴾ رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾ [البقرة: ١٢٥ - ١٢٩].

وَقَالَ عزَّ منْ قَائل:

﴿إنَّ أَوَّلَ بيْت وُضعَ للنَّاسِ لَلَّذي ببكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَالَمين (٩٦) فيه آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ مَّقَامُ إبْرَاهيمَ وَمَن دَخَلَهُ كَانَ آمنًا وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْت مَنِ اسْتَطَاعَ إلَيْه سَبيلاً وَمَن كَفَرَ فَإنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمينَ﴾ [آل عمران: ٩٦، ٩٧].

وَهكَذَا، أَيُّها القَارئ الكَريمُ، لَقدْ كَانَ سيدُنَا إبراهيمُ أُمةً وَحْدَهُ، نَعمْ، كَانَ إيمَانُهُ يعادلُ إيمَانَ أمةٍ كَاملَة، لأنهُ آمنَ عَنْ يقين، وعنْ تفكير عَميق، جَعلهُ يخْلصُ لله عزَّ وجَلَّ، ويعْبُدُهُ حقَّ عبادَته، فأوسعَ لَهُ فى الدُّنيَا، وَجعلَهُ خليلَهُ، ورزقَهُ منْ خيرات الأَرض الوَفيرَة، ومَنحهُ الشَّرفَ بخدمته البيْتَ المحرَّمَ ورفعِ قَواعده، ورزقَهُ الأَوْلادَ فى الكبرِ.

نَعمْ، إن قصَّةَ سَيدنَا إبراهيمَ ممتدَّةٌ، سَنرى بَعضًا منهَا فى قصصِ إسمَاعيلَ وإسحَاقَ ولُوط، التى ستَأتى تبَاعًا.

وَتهدفُ قصةُ سيدنَا إبرَاهيمَ إلَى الدَّعوة إلَى امْتزاج العلمِ وَالإيمَانِ والعَملِ، لَتكونَ قُوةً ونموذَجًا رائعًا لَنجاحِ أيِّ عَملٍ.

وَتؤكِّدُ القصَّةُ أَنَّ التوكُّلَ عَلَى الله وعدَمَ الخوف منْ عباده، يُؤديَان إلَى كَفالة الله للإنسَان وحمَايته لَهُ، فَلاَ تَستطيعُ أيةُ قُوة مَهمَا كَانتْ أَنْ تُؤذيَهُ إلاَّ بأمْرِ الله عزَّ وجَلَّ، مثلُ النَّار التى لَمْ تحرقْ إبراهِيم عندَمَا قَالَ اللهُ لهَا: ﴿يا نارُ كُوني بردًا وسَلامًا علَىٰ إبرَاهيم﴾.

وَتؤكِّدُ لنَا القصَّةُ ضَرورةَ قَولِ الحقِّ، ولَو أمامَ الملكِ أو الرئيسِ لأنَّ الحقَّ يوصِّلُ إلَى النَّجاحِ.

وَمنَ المواعظ المهمَّة فى هذه القصَّة التَّأكيدُ عَلَى أنَّ الإيمَانَ بالله وَعدمَ الشِّرك به مُقدَّمٌ عَلَى صلَة الرَّحمِ، وعَلى أيِّ عَاطفَة أخْرى مثلِ الأُبوَّة وغيرهَا، ولَكنْ منَ المهمِّ جداً سَماعُ قَولِ الأَب إذَا كَانَ مُؤمنًا صَالحًا، واتبَاعُ أَوامره.

وَتؤكِّدُ قصةُ إبراهيمَ عَليه السَّلاَمُ أَنَّهُ يجبُ أَنْ يكونَ الإنسَانُ حليمًا

واسعَ الصَّدر، طَويلَ البال، عَظِيمَ الأَناة، حتَّى يكونَ لدعوته ثمرَتُهَا التى يريدُها، وإنَّ قصصَ الأَنبيَـاء لتعْطِيَنا كثِيرًا مِنْ هَـذِه الأَمثلة التَى يَنْبغِى أنْ يَقتدِىَ بِهَا الدُّعَاةُ إِلَى الله والمَرْشِدُونَ.